
أطفال الندى
رواية
محمد الأسعد
حين كُتبت "أطفال الندى" عام 1989، وصفها غالب هلسا بأنها "روايةٌ ذات
قراءةٍ في لغتنا العربية". وإن استعادتها ونشرها في فلسطين المحتلة ـ لأول
مرّة ـ تأكيد على هذه القراءة التي تبدو أشدّ وضوحاً بعد أكثر من عقدين
على صدورها. أما صاحبها محمد الأسعد فهو من تلك الطينة النادرة التي
منحتنا ناجي العلي وغسان كنفاني وأنيس صايغ. إن قراءة كاتب مثله
في مجمل ما أنتجه من رواية وشعر ونقد تبدو ملحّة في هذه اللحظات
التي يحاول فيها الإنسان الفلسطيني والعربي استعادة ذاته. إننا أمام
كاتب مهّد ولا يزال يمهّد لتيّار جديد وجذري (بالمعنى التأسيسي للكلمة)
في الكتابة الفلسطينية المعاصرة.
نجوان درويش
أطفال الندى
محمد الأسعد

محمد الأسعد

أطفال الندى

رواية

*صدرت الطبعة العربية الأولى
عن رياض الريس للكتب والنشر،
لندن، سبتمبر 1990
*تُرجمتْ إلى الفرنسية (آلبن ميشيل) 2002
*ترجمتْ إلى اليونانية (الكساندرية) 2003
*تُرجمتْ إلى البرتغالية (كامبو داز ليتراس) 2005
*تُرجمتْ إلى العبرية (بيرديس) 2005

1

على قمة شبه مستوية في النهاية الجنوبية لجبل الكرمل، تربض قرية أم الزينات الفلسطينية. ويمكن للإنسان أن يأتيها من عدة طرق بعكس ما تذهب إليه كتب الموسوعات التي تصر على أن ثمة طريقين إلى ارتفاعها البالغ 317 متراً عن سطح البحر، الأولُ طريقٌ معبد، 38 كم، يصلها بحيفا عبر جبل الكرمل، والثاني طريقٌ طوله 24 كم عبر مرج بن عامر.

الطرقُ إلى أم الزينات كثيرة، ويجيد القرويون إيجاد الطرق عبر الوعر ونبات الصبر والزعرور، فعلى مبعدة منها يمتد الطريقُ الوعر إلى أم الدرج، وهي نبع ماء يرتبط اسمها بمعركة خاضها الثوار، 1936، ضد القوات البريطانية. وإلى جنوبها يستطيع القروي أن يذهب إلى أم الشوف وأم الفحم متنقلا بحرية بالغة، بعيداً عن الطرق المعبدة. وقد أصبحتْ كلّ الطرق بفضل التمكّن الفلاّحي تقود إلى أم الزينات وتنطلق منها. أما وادي الملح المجرد من الشجر، فقد ظل معبراً يتذكره الفلاحون جيداً في طريقهم إلى شرق فلسطين، وذلك قبل أن يمتليء بالشجرِ وفقَ نبوءة الشيخ حمزة.

كل هذه الطرق والأماكن يرتبط بالأحداث، ليس هناك مكان لايرتبط بالذاكرة، بحدث ما. ولو أُتيح لنا أن نرصد تفاصيلَ الأحداث والأماكن عبر زمنٍ يمتد إلى أبعد من جيلٍ أو جيلين، إلى مئات الأجيال، لكانتْ من كل هذا ملحمةٌ تشهد بأن التاريخ الإنساني موجز إلى حد كبير في كتبِ المعلومات والموسوعات.

إنها قريةٌ صغيرة تمردتْ كما تقول التواريخ الرسمية للإستيطان الصهيوني على "سلطة الدولة"، أي على قرارِ التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة، وجعل هذه القرية جزءاً مما سموه "إسرائيل". ومثل كلّ قرارات الموسوعات والتواريخ الموجزة، جاء القرار ليطمس كلّ تفصيلٍ وكل ملمحٍ إنساني خاص بهذه البقعة الصغيرة. ولكنني أتذكر بأن جدي كان هناك في سنة من سنوات هذا القرن العاصف، ربما في العشرينات، وقد استيقظ ذات صباح مع الفجرِ وصياح الديكة لينزل إلى حيفا. وبعد أن أعد حصانه، اتكأ على مسند في غرفة الضيوف يشرب قهوته ويدخّن لفافة تبغه الأولى. وكما لو كان الأمر حدثاً في أسطورة، استبطأته جدتي، وجاءت تنبهه إلى أن الشمس قد ارتفعتْ وبدأت أمواج البحرِ تتلألأ أمام حيفا الراقدة في السفح، فوجدته مازال متكئاً وقد مالَ برأسه جانباً؛ لقد كان ميتاً.

وتقول أمي إن حزن الجدة عليه كان عظيماً، فقد كان شخصاً لايعوض إلى درجة أنها لطمتْ صدرها بالحجارة.

جاء القرار ليطمس التفاصيلَ وتفاصيل التفاصيل، أي حتى تلك التي التقطتُها، أنا الصغير كما يلتقط الإنسان حلماً، فلا يجد في يده إلا صوراً.. ولاحركة.. صورة من هنا.. وصورة من هناك. ولكنني أسيقظُ بعد كلّ هذه السنوات وتتحرك في قريةٌ كاملة بكل طرقها عارفاً أن الكتب المدرسية لا تصف إلا طريقاً أو طريقين، ولكن أهلنا كما يبدو يعرفون مئات الطرق التي تصلُ إلى أم الزينات أو تنطلق منها.

بئر الهرامس.. كم سمعتُ هذا الاسم يتردد على الألسنة، وخاصة حين تنطقه أمي مشفوعاً بحادثة حدثتْ هناك! لايعرف القروي أن يقص حدثاً إلا مشفوعاً بمكان. وحتى الأزمنة لاتقاس بالأرقام المجردة، بل بالأحداث الحيوية.. بسنوات الحصاد والجفاف.. والثورة.. والفتنة.. ومجيء الإنكليز لتطويق البيت وتخريب مؤونة الصيف والشتاء.. حين خلطوا الشيد بالزيت والقمح بالتراب.. بل وطاردوا الدجاج ومعسوا رأس بعضه بالشيد.

كان بئر الهرامس يذكر بحنانٍ لاأدرك مصدره.. أنا الذي لم يذهب إليه يوماً. ولكنني أتمثله ليصبح جزءاً من ذاكرتي، وليصدمني اسمه حين أقرأه في الكتبِ مكتوباً هكذا.. بئر الحرامس. كم هو غريب هذا الاسم.. ومحتلٌ.. إلى درجة أنني لاأتردد في تشبيه الاسم بمستعمرة تقام مكان قرية الطفولة. وأقرأ أن المستوطنين الصهاينة بعد أن هدموا قريتنا أنشأوا إلى جوارها على بعد كيلو متر واحد مستعمرة أطلقوا عليها اسم إلياقيم. اسم مغلقٌ لايعني شيئاً. ولا أعرف كيف تبدو هذه المستعمرة الآن، ولكن كل ما أعرفه أن قريتنا ما زالتْ أسس بيوتها ماثلة وقد عرشتْ وامتدتْ فيها وحولها أشجار الصبر والزيتون والزعرور البري. إنها مقيمة هناك، تتكاثفُ على أرضها وأحجارها الأشجار لتكون غابة. ولكن ما أن تحترق هذه الغابة ستظهر واضحةً بيوتُ القرويين والطرقُ التي تؤدي إلى القرية.. تلك المعبدة وغير المعبدة.
مرحى للكاتب الاستيطاني إبراهام يهوشع الذي رأى خلال كوابيسه الكثيرة قريتي وقد ظهرتْ بعد أن احترقتْ الغابة. لقد كان لدى هذا المستوطن من الوقت ما مكّنه من أن يحلم حلمي نفسه في وقت كنتُ فيه لاجئاً طمسوا تفاصيله وتفاصيلَ من حوله.

أليس من حقي أن أستعيد تفاصيلي من الكتب.. ومن حلم الآخرين الذين تحدثوا عني ورأوا رؤياي قبل أن أصلَ إلى سن الرشد؟ أليس من حقي أن أعترض على قرارات الأمم المتحدة التي تجهلُ اسمي واسم جدي.. بل وتجهلُ أن أم الزينات لايعرفُ تاريخها كما لايعرفُ تاريخ الوردة؟.

لقد قرروا لنا طريقاً أو طريقين، ولكن هنالك العديد من الطرق. فما أن تبتعدعن قريتنا المفروشة كراحة اليد على هذه القمة الواطئة جنوبي الكرمل وتنزل إلى أحراش الزيتون حتى تكتشف هناك بيتاً أو بيتين أقيما في قلب الخضرة، وبعدهما تتشعب الطرقُ جنوباً وشمالا وشرقاً وغرباً.. وبين بين. وحين كان الطريقُ المقبلُ من حيفا يمر إلى جانب بيتنا ويصعد إلى البلد يتوقف الباص الوحيد المعروفُ هناك، وينزلُ منه أخي الكبير آنذاك، ويهرع الكلب السلوقي الذي أحببناه.. وكنا نتجرأ ونمد أيدينا الصغيرةَ في فمه اللاهث، فيمنح الذاكرة شيئاً من الحيوية. لقد كان ذاك دمه حين عاد أحد القرويين واختبأ في بيتنا بعد احتلال أم الزينات. وقال في روايته: يبدو أنهم نقلوا بعض

قتلاهم إلى بيتنا في ليلة الاقتحام. وقالتْ أمي: لا.. إنه كلبنا الذي لم يجد مكاناً يذهب إليه فعاد إلى البيت ويبدو أنهم أحسوا بحركته.. فقتلوه.

تحدثني أمي عن الطرق، فأكتشف عالماً آخر.. فطريقٌ يؤدي إلى البلدة صعوداً، وطريقٌ بين الصيافير يقود إلى وادي الملح، وطريقٌ إلى الروحة، ذاك الحقل الواسع من الخضرة، وطريقٌ إلى أم الدرج، وطريقٌ إلى البئر، وطريقٌ إلى عسفيا والدالية.. وأتيه بين التفاصيل، ولا أعرف حين يذكر الاسم أهو عين أم بئر أم قرية أم مجرد بلاطات أم حقل زيتون أعطوه اسماً كما كانوا يعطون لأطفالهم أسماء.
كل شيء في وطني يمتلك اسماً بدءاً من الحجر ومروراً بالشجرة ووصولا إلى الفصول والثمار والإنسان. لاشيء يظلّ بلا تسمية بل أن مكاناً أو شيئاً واحداً قد يكتسب اسمين في وقت واحد. ويخيل إلي أنا الذي يمتليء خيالي بالقرية وما حولها كما لو أن أهلي كانوا يسكنون غابةً من الأسماء فعلاً.. وطناً لايوجد في اللغة الفصحى، ولكنه أفصح منها بكثير، كل ما فيه يسمى ببساطة. نفهم إذن لماذا هذا الغيظ الاستيطاني من الأسماء الفلسطينية، فكل ما في فلسطين يحاصر الغريب حتى اليأس.. ففي كل مكان شجرة زرعها إنسان، وعند كلّ مرتفع قرية وتحت كل واد بيوتٌ متناثرة كما لو أنها وجدتْ منذ الخليقة. إقلب حجراً وتأمله.. وستجده ليس طبيعياً تماماً.. وأن آثار فأس أو إزميل قد مرتْ عليه. لم تكن فلسطين بريةً في يوم من الأيام.

كان الشيخُ حمزة الذي هو حي وإنساني أكثر من كل ملفّات الأمم المتحدة واستراتيجيات الغرب، قريباً لنا، ومنذ أن وعيتُ على اسمه وهو في سن الشيخوخة. يتحدثُ عنه أبي كما لو أن عمره تجاوز المائتي عام، ويعتقد الأهلُ أن هذا الشيخ كان قارئاً ومدركاً حتى أنه حدثهم بأحاديث عجيبة عما سيحدث في مقبل الأيام، حدثهم عن وادي الملح الأجرد وكيف أنه سيصير غابات من الأشجار.

"كان يقرأ في الكتب".. بهذه العبارة التي ينطقها القرويون بتهيب، تشعر كم كانت هذه الروح زاخرة بذكريات غامضة عن قداسات ضائعة في هذا الوطن. لقد ذهبتْ الكتب والألواح، ولكن ظل تقديس الكتابة والكتابِ شيئاً غريزياً كما لو كان الأمر منطبعاً في الروح.. وكما لو أن الأبجدية قد وصلت منتهاها وترجمتْ نفسها إلى حياة، فأصبح الإنسان نصاً.

شيخنا هذا ظل هناك. وروى قريب لنا أنه شاهده بعد كل هذه السنوات بعد العام 1967، أي حين صار الوطن كله محتلا.. فسأله أن يقول له ماتقوله كتبه، فقد حدث كل ما تنبأ به في الماضي.. ولكن ماذا عن المستقبل الآن؟.

قال الشيخ: "ألا ترى أن وادي الملح صار غابة؟ لم تكونوا تصدقون ماأقول. والآن إعلم أن العرب سينتصرون. وسيضعون يدهم بيد المسكوف. وعندها تدور الدائرة على اليهود".
وصمتَ الراوي متأملا وهو ينقل هذا الحديثَ كأنه يعود إلى القرية مرةً أخرى. كان أهلنا يؤمنون تماماً بالنبوءات. وكانوا يتحدثون عن تلك الكتب اليهودية التي حدثهم بها بعض اليهود، وفيها أخبار عن انتصار إسرائيل إلى حين ثم يأتي وقتٌ تنقلب الآية وتنهزم إلى غير رجعة. وكانوا يؤكدون هذه القناعة بالإنتقال إلى القرية دائماً وإحيائها.

لم تكن الموسوعاتُ تعرفهم، ولا كتب السياسة تدرك ما يدركون، فكل منهم يعرف قريته وينقلها إلى أبنائه بتفاصيلها وأسماء عائلاتها، بخلافاتها ومنازعاتها.. وسنواتها. ولكن الكتب الرسمية.. خذلتهم، فأهملتْ مئات الطرق التي تقود إلى قراهم، وتجاهلتْ أسماء الحجارة والأودية والشجر والناس، وعممتهم إلى درجة مخيفة بحيث تحولوا إلى مصطلح وإلى وجهة نظر، وليس وجهة النظر نفسها.

تحدثني أمي عن الطرق العديدة التي يمكن أن يسلكها القادم من كفر الشيخ والشوف وأم الدرج وأم الفحم إلى قريتنا. وأذّكرها بذلك الفجرِ الذي وجدتني فيه أسير في غمامة يحيط بي أناس يتنادون بين الصخور وهم يسيرون ضائعين في الضباب.. وتلك القطعة من الليل فوقنا تخترقها جمراتٌ حمراء، وذلك النعاس الذي يأبى أن يداعب العينين وهما تستيقظان على أشباحٍ تبرز في الظلام أو تتجمع حول أضواء مرتجلة.. فتنفصل كل شيء وتذكر المناسبة. وأدرك أن ذلك الليل كان ليلَ خروجنا من أم الزينات بعد أن احتلّها اليهود.

وتبدأ القريةُ بالظهور مجدداً، وتحتشد بالأسماء والناسِ، وتمتد منها الطرق.

11

أتذكره متربعاً على الأرض، وبين يديه علبة التبغ يحدقُ في البعيد بشواربه التركية الكثيفة وعينيه العسليتين الساهمتين. هكذا يحضر في الذاكرة من لا اسم له ولا أصلَ ولا بيتَ ولا صوت.
كان شيئاً من الماضي، يلح علي الحضور دائماً، فكيف أعرفه؟ اسمه لايرن.. مثل معدنٍ ثقيلٍ من الرصاص المعتم، لاأميز فيه أي نقشٍ أو خط، تقولُ عنه امرأةٌ ما أن مأساته بدأتْ في أثناء الحربِ العالمية الأولى فقد كان متزوجاً من جنّية ترافقه في كل مكان؛ تحفر له الخندق وتحميه من الرصاص، هذا الجندي العثماني الساهم الآن.. إذن هو شيء آخر غير هذه الصورة الساكنة.. ماعدا حركة يديه وهو يلف لفافة التبغ.. وهو يدخّنها، فيغطي الدخان الكثيفُ مثل غيومٍ وجهه النحاسي.. وشاربيه وعينيه الثابتتين في البعيد.

أراه متربعاً.. ولكنه كان متحركاً في ماضيه البعيد، تقف إلى جانبه زوجته الجنّية وتحميه.. وفجأة ينقلب المصير فيعود إلى قريته، ليجد أن الجنّية قد سبقته. ولسببٍ ما نراها تهدم البيتَ على زوجته وأولاده.

تقول المرأةُ.. "إنها تناديه ويهرع إليها. وكثيراً ما كان يهب من نومه على صوتها ويندفع خارجاً. واعتدنا أن نربطه إلى سريره بحبلٍ حتى لاينطلق وراءها".

لقد تحرك في الذاكرة، وصار الرجلُ قصةً تُروى بلسانٍ غيره. وحين كنا صغاراً يحيطُ بنا الظلام وصوتُ المرأة الراوية، كان الرجلُ بشاربيه وعينيه العميقتين يتسيد على خيال الصغارِ ويواصلُ حياته. ألهذا السبب، في انتقاله إلى الأسطورة، ظل حياً؟! ترى ماذا كان اسمه واسم الآلاف الذين اعترضوا طريقَ الصغيرِ في خروجه من عتمة الماضي؟ إنه صورةٌ مثلما هي الصور العديدة ولكنه يبدو أشدها وضوحاً، وتشبثاً بالبقاء. إجعلْ من نفسك شيئاً قريباً من الأسطورة تستطع أن تعيش وتبقى شيئاً خارقاً يسقطُ خارج حافة النسيان.

ومع ذلك.. فكلّ شيء ينقطع إذ لاتمتلك تفصيلا آخر تضيفه إلى قصة الرجل.. عاشق الجنّية العجيبة التي دمرتْ حياته وعقله، وجعلته طافياً مثل جثّة ذهبية أو قناع لايشفّ عما وراءه.

ولكن هناك آخريبدو أشد إلفةً.. عجوز يهتز من البرد في مكانٍ أليف تغطّيه بطانيةٌ وتحيطه رعاية عشرات الأيدي والأحاديث والدفء.. تراه يمسك بيديه المرتجفتين صحن حساء أو شيئاً شبيهاً بذاك.. وتسألُ من يكون؟.

تقولُ أمي إنه جدي.

وتندهش من ذاكرتي، وتحاول أن تذكرني بأسماء وأحداث أخرى. ولا أتذكر، وأترك لها أن تروي لي ماكان يحدث في ذلك الجزء من العالم الذي كنتُ فيه ولم أكن.

ذات يوم كما تقول أمي ابتلعتُ فحمةً. نعم فحمة سوداء، وكدتُ أختنق. ولكن إحدى الخبيرات بمثل هذه الحوادث استطاعت انقاذي.

لاأتذكر.

ذات يوم انقضتْ حيةٌ من وراء السلسلة الحجرية، وأمسكتْ بأرنبة صغيرة من أرانب البيت من أذنها، وحاولتْ أن تسحبها عبر السلسلة الحجرية، فلم تستطع، وأفلتت الأرنبة. يقول والدي: "كانت الأرنبة الصغيرة تنتفض وقد تحول لونها إلى أحمر داكن، فأسرعتُ إليها، وأمسكتها ثم كويتُ جبينها، وبهذه الطريقة نجت الأرنبة".

لاأتذكر..!

أنا أسير الآن في أسطورة ولا أتوازى معها، وأحاول الاندماج فيها بحثاً عن خلود خاص أو نوعٍ من الحياة كان خامداً، وأسير في طرق الأحداث التي كانت قبل ميلادي أو بعده. ويحدث كثيراً أن أحلم حلماً يكاد يكون دائماً عن عودتي إلى قريتي فيعود الأمواتُ أحياء، وأدهش كيف أنهم قالوا لي أن فلاناً ماتَ وإن فلاناً قد دفن منذ زمنٍ طويل وإن قريتنا أُحتلتْ.. فكل هذا غير موجود في الحلم. ولكن في مرات أخرى، يكون الحلم في الحاضر كما يبدو، فأراني وقد جئتُ إلى القرية واختلطتُ بهؤلاء المستوطنين اليهود، ونجوتُ من الحواجز بمعجزة.. إذ لاهوية.. ولادليل شخصية من أي نوع أحمله. ويسيطر على جو الأحلام مناخٌ من الدخان. إنه مشهد تكرر كثيراً. حرائق صغيرة في كل مكان. ربما كانت حرائق أكوام القمح بعد الحصاد، حيث تحرقُ أكوام القشّ لتكون سماداً في المواسم المقبلة، ويتحرك الناس في هذا الجو الشتائي مثل أشباح. بعيدون دائماً لا يتكلمون. حلم زراعي لا أشك أنه يستعيد طقوساً كانت موجودة منذ آلاف السنوات.. حتى ولو لم أكن موجوداً آنذاك.. إذ يحدث كثيراً أن يعيش الإنسان أيام ماقبل ميلاده في الأشياء الباقية، ويتولاه شعور غريب وهو يقرأ نصا مؤرخاً في زمن لم يكن فيه موجوداً. ومع ذلك فبمجرد أن يمتلكه ويفهمه يتغلغل فيه إحساس بأنه كان موجوداً.

ويحدث كثيراً أن يشم الإنسان رائحة ما، فتهب على ذاكرته وكيانه عوالم منسية قد يكون صعباً تحديدها إلا أن الشعور الجارف بالحنين والغبطة يجعلها حقيقية في مكان ما. أليس للخروبِ الأسود مثل هذا الطعم؟

إنه يبعثُ بمجرد تذوقه عالماً كاملاً.. أماكن ووجوهاً ولحظات.. وكنا نحبه على شكل مربى يسمى الرب، وتقفز إلى ذهني هذه الكلمة، فأفهمها مباشرةً. وتقول أمي.. "كنتُ أعمله لكم في الشتاء وأعمل أشياء كثيرة"، وتتنهد كما لو أنها تستيقظ من أسطورة ويسود الصمت.

في الصمت نشأتْ أشياء كثيرة. وأكاد اتخيل أن الطرقَ المؤدية إلى قريتنا كان يتجول فيها الصمتُ وحده.. عائلة من الصمت والهمسِ القليل.. حتى لايكبر الصغار فجأة ويقفزون من طفولتهم إلى مغامرة غير محسوبة، أو حتى يتسنى لنا حمايتهم من الجنّيات.. ومن ذلك الذي يستعاذ به باسم الله.. ولكن ليس كلّ الكبار من العائلة.. وليسوا من المهتمين بحدائق غيرهم. وهكذا يحدث أن يخترق الصمتَ العائلي غرباء يكسرون مؤامرة إبقاء الصغارِ وراء الجدران.. أو يخترقه خيالُ الصغارِ أنفسهم، فيعيشون مقارنات ومشابهات عجيبة.

تقص أمي حكايةً عن شابٍ ينعزل في الجبال، وتسميه دائماً أبو الشباب. وأشعر وأنا أصغي إليها أنها تعني أخي الكبير الذي ظل هناك في فلسطين لسببٍ ما لاأفهمه.

وحين تقص حكاية الحسناء الأصيلة، أحاول أن أجد حولي من تشير إليها، وكذلك أحاول اكتشاف من يكون ذلك الذي هجر أهله وحمل حقيبة من الذهب باحثاً عن فتاة أحلامه. لاشيء يجري في القصص يمكن أن يكون خارج العالم. ونشعر بهذا من لهجة القصة ونبرة الصوت والحشرجة، والبكاء أحياناً، فنحس نحن الصغار أن الأمر ليس أمر حكاية تحكى.. بل هو أمر يتصل اتصالاً حميماً بالراوية.

يقول أحد الأصدقاء.. "إنكم تستنفرون ذاكرتكم دائماً، ونشعر حين يتحدث أحدكم أنه محتشد حتى الحافة بكل ماضيه"، ويعني بذلك صديقنا خيري وآخرين تشتعل الذاكرة دائماً في أودية وقمم أحاديثهم.

فماذا يحدث إذن لو يحضر كل شيء من أدقّ تفصيل فيه، وينهار الفاصلُ بين الحكاية ومن يرويها؟ لسببٍ ما لاأدري كنهه، لم أستطع الاقتناع بأن قصص أمي لم تكن مما حدثَ لها ولأهلها أو للجماعة القروية كلّها.. وخاصة بعد أن تحولتْ حياتُهم الماضية إلى قصص تُروى.

كل شيء يمكن أن يتحول إلى حدث وقصة: الحجر والبيت، وهذه الزاوية من الكرم، وهذا الموسم، وذلك الشتاء، ولكن الوالد لايتحدث كثيراً، فما زال قانون الصمت هو الساري، أما الأم فكثيراً ما كانت تبدأ قصصها هكذا بلا مناسبة.. وحتى بلا حضور من يسمع أحياناً. إنها تتحدث وتروي أشياء لنفسها.. ربما، كأنها شخص آخر يخاطب آخر ويجادله. ويمكن أن يكون هذا هو سبب نزعة الحوار الداخلي التي نشأتْ معي، إذ يبدأ الحوار بموقف يخلق فيه الإنسان شخوصاً مع حوارهم، ويراقب الحوار أو يتدخل فيجادل ويتحاور، ويقيم مسرحاً خيالياً لحسابه الخاص. وغالباً ما يكون ماضينا هو هذا المسرح الذي يتم عليه تعديلُ وتحوير الماضي، وجعله أكثر واقعية وصدقاً وحميمية.

إن مسرحنا هو الماضي التام، ولكن كل شيء فيه لم يصادق عليه نهائياً.فما دام الممثلُ والمخرج والمشاهد هو شخص واحد فيمكن التدخل وتوجيه المسرحية في أي لحظة. هكذا يعاد بناء ماضينا بدون أن يعني ذلك أننا نفرض رغباتنا الأنانية. إننا نود أن نفهم العالم، أن نعيد توعية النفس بالرموز والإشارات، فكل شيء من الماضي يقود إلى الحاضر. إذن هو النبوءة التي صدقتْ.. هو

الرمز الذي ألقى به هاتفٌ في سمع الصغير. وهاهو بعد أن كبر، يجد نفسه مسؤولاً عن تفسير الهاتف.

كان جمع النسوة يتحرك في دائرة حول حفرة في الأرض مع صوت عويل متواصل، وكل امرأة من النائحات النحيلات تبدو متشحةً بالسواد، منثورةَ الشعر، تلوح بمنديل أو بشيء شبيه بهذا. الصراخُ يصم الأذنين. ومن زاوية الصغير الذي ينظر، كانت النائحاتُ بطول النخيل، وأصواتهن تحشد الفضاء بالأنين.

لم يكن قد مر على تحول العالمِ إلى كل ماهو غريب ومثير للتساؤل غير سنتين أو ثلاث. وكانت فلسطين هي القبر/الرمز الذي تدور حوله النائحات. إنه طقس زراعي آخر لانبعاث الخصوبة من عمق الجفاف.

صديقنا الجندي التركي يصحو أحياناً، ويسمع جنّيةً تناديه، فيهب وينطلقُ خارج البيت والكون. ولو لم يكونوا يربطونه بالحبل في إثناء نومه، أين كان يمكن أن ينطلق وأي مدى سيجري فيه إلى أن يصل إلى أم الزينات على السفح الجنوبي للكرمل؟ أعتقد أنه كان سيجري ويجري إلى أن ينتهي هناك، ليبكي عند جدار بيت محطمٍ بينما تشرق عليه الشمس الدائمة.. شمس جنونه العظيم.

111

انا الآن أسير في أسطورة، ويتحدث في المئاتُ الذين عرفتهم والذين لم أعرفهم، ويتزاحمون أحياء وأمواتاً في هذه المدينة الغريبة التي أخلقها، ولا يتضحون تماماً، فبعضهم يتّخذ شكلَ أشجارٍ غريبة لم تنبتْ إلا في الطفولة، وبعضهم يتّخذ شكلَ التماثيل الصامتة التي لانراها إلا في المدن التاريخية التي طمرها الطوفان أو أحرقتها الحروب. وبعضهم يتحول إلى رائحة منتشرة في المكان.. رائحة نهر أو جبلٍ أو غابة صغيرة ربما مررتُ بها يوماً.

وأصغي إلى تلك الأمكنة التي كنتُ فيها أو كنتُ أحد الذين نسيتْهم، وأنتبه إلى صوت ناي من القصبِ الأخضر بين مروجٍ خضراء، وأنا مختبيء مثل أرنبٍ صغير لاأحد يعرف مكانه ولا أحد ينتمي إليه أو هو لاينتمي إلى أحد. تلك كما أعتقد ماكانوا يسمونها الروحة.. أتقع شرقاً أم غرباً؟ لاأحد يعرف، فلا جهات في الطفولة لأنها جهة واحدة. وأجهد أحياناً لرسم جغرافية المكان، فترتسم في الذهن مغاور جبلية أو أودية عميقة، ولاشيء مما تذكره الخرائط أو تهتم بتفصيله الموسوعات.

إن لنا كما يبدو كوكباً آخر هبطنا منه، ولنا أمهات أخريات لاتتحدث عنهن مذكراتُ الرجال المشهورين. وحتى رجالنا الذين يعتقد والدي بعد عشر أو عشرين سنة أن الضباع ما زالتْ تأكل جثثهم، لايبدو أن أحداً أدرك لهم وجوداً.

إننا مكتفون بمعنى ما من كلّ شيء.. ومع ذلك فإن طرفاً من العالم يطلّ علينا، ونتحدث عنه ونتناقل أخباره كما لو كان شيئاً معزولاً عنّا.. إلا حين يترك جرحاً. هكذا كان الحديث عن الصديق البريطاني الذي نصح أخي بالرحيل إلى قبرص، ولكن والدي عارض الفكرة.. وقادته فكرته إلى طمس حياة كاملة كان يمكن أن تكون مختلفة.
تعلّقُ والدتي حزنها وأسفها على رفض فكرة قبرص بسببٍ أستشفه من لهجتها وهي تقص هذه الحكاية، فلو لم تمتْ هذه الفكرة في وقتها لظل لها بكرها: أخي الكبير.. ولم يقتنصه الموتُ بعد ذلك بخمس سنوات. أتراها كانتْ تحس بأن مصائرنا كان يمكن أن تختلف لولا هذا الرفض؟ لولا

هذه الكلمة يقولها الوالد فتقود إلى موت الإبن الأكبر وإلى هذا الصمت العائلي الكثيف الذي لايمكن اختراقه إلا بطفولة استثنائية وليس بطفولة مؤجلة.

لقد تأجل كل شيء منذ تلك اللحظة كما يبدو، واللوم كلّه ينصب على الوالد الذي رفض الفرصة.. فرصة حياة بكرها، وفرصة الوعود التي لم تكن تعرف لها شكلاً، ومع ذلك كان يمكن أن تنقذها من هذا الحزن الصامت. وأعدها بيني وبين نفسي بأن أقف على سر الموت، وأتجنب أن يحدث ذلك مرة أخرى، فالموتُ لايبدو لي شيئاً مفهوماً. وما دام الأمر كذلك فلا بد أن نسترجع أمواتنا يوما ما. كم هم كثيرون إلى درجة لا يحصيها العد.

أنا متأكد من أن ذلك الماضي كله موجود في مكانٍ ما، فلا أحد يكبر في الماضي؛ الطفلُ يظلّ طفلاً.. والشيخُ يظلّ شيخاً.. والصبيةُ تظل صبية تماماً كما يحدث في الحكايات التي لا يكبر فيها الناس مهما تكررتْ.. وخاصة شخصياتها الرئيسية التي لايسمح لها الراوي بأن تغادر عالمها إلى عالمنا المزدحم بالذبول والموت.

تقول أمي، حين حدثت معركة أم الدرج، حاصر الانكليز الثوار بسببِ خطأ ارتكبه أبو درة، فقد طلبوا منه عدم المبيت، ولكنه أصر على البقاء بصوته الأخنب وغطرسته التي انتقدتها أمي كثيراً.. وحين أشرقت الشمس كان الجميع محاصراً. وقال الانكليز.."اذهبوا واحملوا رجالكم"، وانصرفوا.. وجاؤا بهم مثل حزم الحطب على ظهور الجمال.

وأتخيلُ قافلةً من الجمال وحزماً من البشر/الحطب، ولا أستطيع الوصول إلى سبب هذا التفجع الذي تبديه أمي.

"لم يكملْ اخي غير الصف السابع.. ولكنه كان ذكياً يجيد الانكليزية".. هكذا تروي أمي طرفاً من حياة هذا الذي أصبح في ما بعد مصدر أسف وحسرة دائمة. واتذكّر أنني كنتُ أهرع، أو أن آخر كان يهرع إلى الباص المقبل من حيفا.. وأشاهد كلبنا السلوقي المسكين يقف على قائمتيه أمام باب الباص ويضع يديه في أحضانِ رجلٍ ينزل من الباص أو من سيارة ما لايتضح منها غير الرجل الذي يترجل.. والكلب الذي لايكاد يصبر فيقفز للقائه، وتنقطع الحركة، وتختفي الصورة كما لو أن أحداً أطفأ أضواء المسرح أو أوقفَ عرض الفيلم.

"وحينما كنتم صغاراً.." تكمل أمي "ذهبتُ مرة إلى البلد، وتركتكم في البيت برعاية أختكم الكبيرة وجاء الطوقُ والانكليز، فلم أستطع العودة. وحين عدتُ كان البيتُ مقلوباً. الزيتُ مخلوطٌ بالشيد، والدجاج ميتٌ، والطحين خلطوه بالتراب".

ويكمل أبي.."كان أخي الله يسهل عليه هو السبب. فكم نصحته أن يتخلص من بندقيته، ولكنه كان يصر على الاحتفاظ بها. أكيد انهم رأوه وهو يخرج من البيت ويرميها بين الصبر عندما حدث التطويق. وسألوني، لمن هذه البندقية؟ فقلتُ، أنا رجل بالكاد أستطيع أن أبصر فكيف لي أن امتلك بندقية؟ ولكن صوصة اللئيم قال، نعرف أنها ليست لك.. دلّنا على صاحبها.

كان صوصة يهودياً في خدمة الانكليز وهو الذي حقّقَ معي".

ويختلط في حديث والدي المرح والإحساس بالزهو إذ لم يستطيعوا أن ينتزعوا منه كلمة عن البندقية رغم أنه لم يخف لومه لأخيه بسبب تلك الحادثة.. بهذه الطريقة يدخل إلى عالمنا الصامت أقرباء، ويكبر الكون شيئاً ما، فثمة أشخاص يحضرون بأسمائهم. واضيف بدوري إلى الجغرافية التي استطعتُ رسمها حتى الآن، واحدد موقع بيت هذا الأخ الذي اختار ان يسكن قريباً منّا.. في وحشة الجبل، بعيداً عن بيوت أم الزينات.

كنّا في البرية نفسها. وقد انتقلت معنا هذه البريةُ القديمة. إن حديثنا عن الآخرين هو حديث عن كائنات اخرى لاتكاد تشاركنا المصير.. وإن شاركتنا في بعض الطرقات والمناسبات. وينتقل إلي إحساس بأننا مختلفون ما دمنا نتّخذ من الآخرين موضوعاً ونحكم عليهم وندين أو نبريء، فهذا خائن.. وهذا جبان.. وذاك كان رجلاً. وتتخذ أمي من القصص وسيلةً لملء هذه المساحة من الحياة المؤجلة، فأخي يتم تعليمه في الصف السابع ولو بالذهابِ إلى قرية أخرى ثم يبدأ العملَ في حيفا، وتبدأ سيرته بالتداخل مع سيرة الانكليزي الذي هو في الحكاية صديقه، والذي يعرض عليه أن ينقله مع أهله إلى قبرص حين بدا أن كل شيء يسير إلى خراب.

ويرد اسم الانكليزي الصديق مرة أخرى حين تروي قصةً حدثت مع الخال المسلّح دائماً. هكذا يرد في الحكاية. بندقيته على كتفه، فمرة يظهر في عداد الرجال الذين ينطلقون مع أبو درة، ومرة يظهر جريحاً، يضطر إلى الهرب إلى سوريا. ولكن تبقى صورته هذه.. صورة العائد وحده إلى البلد بعد أن احتلها اليهود في تلك الليلة. يقول أنه كان يعرف انكليزيا فذهب إلى بيته في حيفا وتسور عليه البيتَ ليلا بكامل عتاده، فدهش الرجل، وفاجأه بالسؤال.." ماذا تفعل هنا؟".

ويطأطيء رأسه، فقد كان طويلا، ويجلس إلى الانكليزي متسائلا.." وماذا تريدني أن أفعل؟" المقاتل الأخير ربما في هذه المنطقة المحتلة.. لعلّ هذا ما دار في ذهن الانكليزي وهو يدخّن غليونه ويتأثر ربما لهذه المخاطرة غير المحسوبة.."ما الذي سيحدث الآن؟"
ويبحث الانكليزي عن الكلمات المناسبة التي يمكن أن تصف لهذا القروي المسلح عمقَ مأساته. إنه أصبح بلا وطن، وأن عليه أن يرحل. ويدور في ذهن الانكليزي قرار الأمم المتحدة واعلان دولة اسرائيل الذي لم يسمع به الخال، ولم يعرف أنه كان موجوداً أصلا. ويتمتم محاولا تلخيص وتبسيط اللحظة الراهنة:
"هذه قضية أكبر منك.. قضية دول. لقد اتفقوا على كل شيء ولم يبق أمامك إلا أن ترحل"

أين كنتَ في تلك الليلة؟
كان هذا السؤال هو المحور الذي يدور حوله حديثُ الذين أجلوا كل شيء، وأعطوا للمساحة المؤجلة صيغة الحضور الدائم بتذكّر ما حدث. وتكتشف من رواية كل منهم أن سنوات طويلة مرتْ بدون أن يعرف أي منهم ماذا كان الآخر يفعل في تلك اللحظة وكيف تصرفَ. وها هم يبدأون بتجميع الخيوط، لتسجيل كل شيء دفعة واحدة.

لقد تفرقوا فجأةً، فكل منهم صار مسؤولا عن نفسه بطريقة أو بأخرى. ولكن من الخيوط المتجمعة أدرك شيئاً مهماً، وهو أن أهل أم الزينات لم يذهبوا بعيداً، فالوالد يروي أنه انتقلَ إلى قرية أخرى. تقول أمي إنهم ذهبوا إلى الدالية. أما لماذا لم يبقوا هناك فلأن اليهود أنذروا الدروز بأنه يجب ان

لايبقى أحد من أهل أم الزينات بجوارهم. وتبدأ قصةُ قرية أخرى وانتقالٌ إلى مكان آخر على الطرقات نفسها الممتدة من أم الزينات وإليها، وتظهر صورة غريبة لاأعرف كيف حدثت.. صورة طفل صغير يسير بجوار انسانة ما والوقتُ ليل، والسماء تخترقها جمراتٌ حمراء.

وتعلّقُ أمي.."لقد مشيتَ مسافة طويلة بدون شكوى ولا تذمر"
إنه أنا، إذن من كان يسير في هذه الصورة بدون أن يعرف من أين وإلى أين.. وأين كانت نهاية المسير. المهم أنني هنا الآن، وأمي هنا، وخلفنا مئاتُ التفاصيل الغائمة التي لاتطفو عليها واضحة غير الحسرات. وأشعر بالأمان والزهو. وأكتب في ما بعد.." لقد ولدتُ ماشياً على قدمي إلى جانب انسانة مجهولة.. أو ولدتُ لأول مرة سائراً تحت ليلٍ ما والرصاص جمر يتتابع في السماء".
تقول أمي.."مررنا بعين حوض فإذا بها تنغل باليهود، وصرختُ على البنات: اليهود.. اليهود. كن قد تسلقن الأشجار لقطف شيء من ثمار التين، فهبطن بسرعة"
وقالت الأخت الكبيرة.."كان الرصاص يتطاير تحت قدمي وأنا أركض بقوة".
لم تُصب بالطبع.. فهاهي تقص جزءا من الرواية، ولكن أمي تتذكر كيف أنها راقبت الساحة الخالية بين البيوت وشاهدتْ هناك في الشمس شاباً جريحاً واثنين من الهاغاناه يجلسان في الظل. وكان الشاب يتحرك ويزحف ليصل إلى الظل فيرغمه الاثنان على العودة والبقاء في الشمس.. كان ينزف وهما يضحكان.. ويشيران إليه وهو يسحب ساقه الجريحة ليتقي حرارة الشمس.

في أي الفصول نحن؟ وفي أي الأزمان؟ كل شيء يبدو كما لو أنه كان خارج هذا العالم، حدث يوماً.. ويحدث الآن.. وسيحدث غداً.

1V

سأقلب المعادلات إذن، ليكون الأواخر هم الأوائلُ في هذه الرواية التي تشبه الأسطورة والأسطورة التي تشبه الرواية.
"إننا مثل أناس هذه الروايات".. تعلّقُ أمي.. "وسيحكون عنّا كما نحكي الآن..".
ولكن هذه الأماكن كما يبدو أشد وحشةً وبعداً من أن يذكرها أحد، فبين الأودية، وعلى القمم وعلى امتداد النظر وما وراءه، حيث لايصل الحس ولا النظر، حدثت مئاتُ وآلافُ الحوادث وترددتْ أصداء آلاف الحسرات، ومرتْ في أدغال هذا الصمت وجاستْ خلاله آلافُ الخطوات. ولا أجد شيئاً من هذا في الكتابة التي تزدهر وتحتل مكان هؤلاء الأواخر دائماً.

إنهم الأواخر دائماً، يختلف تاريخهم وتختلف رواياتهم، وهم يتجمعون ويقص كل منهم طرفاً مما أدركه.

يقص الحاج أبو خليل الذي هو يدان ترتجفان ومسبحة، وابتسامة طفل، بصوت رفيع قصة تلك الخيانة الشهيرة التي أدركها حين كان جندياً تركياً على فراش المرض إذ نصحه جار له بألاّ يشرب الدواء الذي أعطوه إياه لأنه سم قاتل. وفعلا كما يقول ما أن أدار الطبيب ظهره حتى سكب كوب الدواء على طرف الفراش، فإذا البطانية تتحول إلى رماد.
"إنها الخيانة"
تلك التي أودتْ بتركيا.

ويمجد والدي ذكرى ذلك الضابط التركي الذي ظلّ على جبل الكرمل يقصف القوات الانكليزية ويمنعها من التقدم إلى أن اتّخذوا إليه سبيلا في شعابِ الجبل وأسروه، فكان أن هنأه الضابط البريطاني على شجاعته وعلى أنه أدى واجبه.

وتضيف أمي وهي تروي عن أمها كيف أن القرية خلتْ من الرجال تماماً، واشتغلت النساء بدفن الموتى! وحين أسأل الوالد أين كان يومذاك، يجيبني بأنه كان صغيراً في أيام الحرب. ولهذا لم

يذهب إلى الحرب. لقد نجا بسبب سنّه الصغير. ومع ذلك ضاع كما تقول أمي حين توفي جدي هو وإخوته. وبدل أن يحفظ لهم عمهم الأرض اشتراها بمبلغ من المال.. وبذروه!

سلسلةٌ من الخيانات تكفي لتفسير نشأة الكون نفسه وليس ضياع هؤلاء الفلاحين فقط. إنهم يجدون لذّةً في تفسير كل شيء بالخيانة. فلولاها لم يكونوا هنا ولم تتفرق بهم السبل.
إلا أن لأمي تفسيراً نسائياً خاصاً، فقد كانوا ظلَمةً إلى حد كبير. وتتذكر فلانة التي قتلوها عند البئر. " ياويلهم من الله". وتتذكر الذين أحرقوا المحصولَ بليل، وتكره خاصة حمولة أو حمولتين من حمائل القرية، ولاتذكر اسم أي منهما إلا مصحوباً باللعنة. ولا أدري لماذا حتى هذه اللحظة.

كيف أُنقذ هؤلاء الأواخر المشغولين بالخيانة واللعنات من الظلام الذي رأيتهم يلجونه وهم يبكون أو يتحسرون أو ينشجون بصمت..؟

الشيخ حمزة يعود مرةً أخرى، ويخرج من بيته هادئاً، قصيراً بلحية بيضاء، يداه خلف ظهره، يقلّب طرفه في ما حوله، وحيداً. ولا أتخيلُ أحداً معه وهو يصعد إلى أعلى ويترك القرية في هدوئها أو صخبها، صاعداً بين الصيافير ومتوغلا في الخضرة المعتمة، وحين يتعب يتوقّف أخيراً ويجول بطرفه بعيداً.. فعلى يساره البحر والصليبيون، وإلى يمينه مرج ابن عامر، وتحت قدميه تتنفس أم الزينات بحشرجة وتنقبض وتتسع بين أغراس الزيتون.

في هذه الطرق كما يقول والدي وحين يسافر المسافر، يحدث أن يصادفه الضبع فيقترب منه إذا رآه خائفاً، وشيئاً فشيئاً يتمسح به وقد يبول عليه. ثم يصرخ في وجهه فينضبع الرجلُ، وتكون تلك النهاية فيأكله الضبع أو يقوده إلى مغارته ليأكله على مهله.
"وصادفتُ مرة ضبعاً".. يكمل والدي.." فصرختُ في وجهه، ففّر هارباً. وكان لصوته وهو يهرب هدير وحشرجة".

ومرةً، ولا أذكر اسم ذلك الذي صار بطلَ هذه الرواية، كان الرجلُ على فرسه. وفجأة اعترض طريقه كائن هائل مثل عمود من دخان أو قطعة من الظلام، فتراجعت فرسه، فسحب بندقيته وأطلق رصاصة. وفي الصباح وجدوا الرجلَ متيبساً على فرسه. ولم يكن أمامه غير نعل حذاء مثقوب.

الشيخ حمزة لايزال في مكانه.. هذا الغامض الذي يقرأ الكتب كثيراً، بينما تنقل الريح إليه روائح الدخان، والنداءات البعيدة التي يطلقها العائدون مع الغروبِ من كرومهم. لعله كان مثلي يود إنقاذَ هؤلاء من العتمة.. وإعطاء روايته مداها. ولعله مثلي كان يبحث عن أشخاص يستمعون إليه، أو لعله كان مجرد معتوه ضائع في قرية منسية. من يدري؟
المهم أنه قالها.. أو هكذا نُقل عنه. "ستخرجون منها، وسيتحول وادي الملح إلى غابة.. ولن تعودوا إلا إذا وضع العرب يدهم بيد المسكوف".

الحاج أبو خليل قطْرز وهو صغير، أي اشتغلَ مع الحراثين، حين نصحه أحدهم أن يترك المدرسة. ويتمنى شاعر أن يكون قطروزاً لقطيعها ولا أدري من هي. ويتأسف الحاج بسبب هذا الجهل الذي جهله حين ترك العلم. ويبدو ابنه خليل مطيعاً.. فهو الكبير الذي تحولتْ صلعته إلى

مايشبه الشمامة.. وما زال يطأطيء رأسه أمام والده الحاج، ويستمع إليه بانتباه وهيبة.. ذلك القطروز الذي اشتغلَ مع الحراثين.

ومع ذلك فإن لخليل حكايات حين يتحدث. إنه متعلم نوعاً ما، ولديه بضعة كتب، ويروي بنبرة هادئة حدثاً لايزال يؤرقه كما يبدو. ففي إحدى الليالي التي هاجم فيها اليهود إجزم إختلط الناس ببعضهم البعض، ولم يميز أحدهم الآخر في الظلام. وكان أن أطلق رصاصة على أحد زملائه. وأدرك خطأه فوراً، ولكنه كتم الأمر. يقول.."ثم ذهبتُ إلى شيخ واعترفتُ له بالحادثة. وأفتى الشيخُ بأنه لايحمل إثماً لهذا السبب، ولكن عليه أن يؤدي كفّارةً ما".
ألهذا السبب كان كثير الصلاة، خشناً في عقابنا حين نأتي على ذكر الله بما لا يليق؟ كان جافاً إلى درجة كبيرة. يستمعون إليه.. وخاصة في تعليم البنات وطريقة تربية الأولاد. وحين ورثتُ بعضاً من كتبه التي تنقلتْ معه كان معظمها قصصاً عن حياة الأنبياء.. وكتاباً واحداً من جزئين عن عصر المأمون. ومع ذلك لاأتذكر إلا أنه كان جافاً.. يخشاه الجميع في العائلة.. صارماً لايكاد يبتسم إلا حين يجتمع مع الكبار في مثل سنّه او أكبر.. لقد ترك كتباً.. وخوذةً عسكرية أتذكّرها الآن وقد ٱُلقيتْ مهملةً حين اكتشفتها في غرفة مهملات مغلقة.. كان في الخوذة بعض ماء مازال يرقد في قاعها. ولاحظتُ وأنا أقلّبها لونها الأخضر، وبطانتها الداخلية المتآكلة. ولم أجرؤ على السؤال عنها.

"كنّا قرب الحدود اللبنانية".. هكذا كان يبدأ قصته وأحدس أنها قصة الخوذة أيضاً.."حين دخل الجيش اللبناني وقد غطّى جنوده أنفسهم بفروع الشجر، واتّخذوا مواقعهم كما يتّخذها أي جيش يود أن يقاتل، تنفسنا.. وقلنا الحمد لله.. هاهم قد جاؤا أخيراً. وسلّمناهم الموقع فشكرونا ثم أخذونا إلى خيمة كبيرة. وهناك جمعونا بعد أن جمعوا أسلحتنا. قال أحدنا ياجماعة قلبي يحدثني بشيء. قلتُ تعالَ لنر. خرجتُ من الخيمة فإذا بالجنود يحيطون بنا. ونهرني الجندي.. إلى أين؟ عد إلى مكانك. وعرفتُ أننا أسرى. وفي اليوم التالي قادونا إلى الشاحنات.. ومنها إلى قلعة حلب. وهناك ٱُطلق سراحنا فعدتُ إلى الأردن والتحقتُ بالجيش الأردني".

تقول التقارير الصهيونية الرسمية عن منطقة الكرمل.."لقد تضاءلتْ سيطرةُ العربِ شيئاً فشيئاً.. ولكن بقي هناك في الكرمل عدد من القرى العربية الجريئة والعنيدة، وهذه القرى لم تصمد فحسب بل واصلتْ منع حركة مواصلاتنا على الطريق الساحلي".

وأتذكر الآن ملحوظات أمي عن عقول أهل إجزم العنيدة. وأكتب.."أخيراً وجدتُ من يذكر هؤلاء المجهولين وإن بهذه الصيغة"، فقد كان خليل من أهل إجزم.. من هذا المثلث الصغير الذي أطلقتْ عليه التقارير الصهيونية اسم المثلث الخطر..عين غزال/إجزم/جبع.
عاد خليل إذن مرةً أخرى. وهذه المرة في صفوف الجيش الأردني، بعد أن أبعدوه عن الشمال ها هو يعود إلى الوسط. يقول.."في أحد المواقع أسرنا يهودياً فقال إن المنطقة خالية من هناك إلى بئر سبع من أي قوات يهودية، لقد توجه الجميع إلى الجنوب. وكان فرصة. ولكن لا أوامر".
وأكثر ما كان يحزنه حين يقص كيف أن طرد اليهود من القدس كان أمراً محققاً. يقول.."تقدمنا واكتسحناهم تماماً، فطلبوا منّا العودة إلى مواقعنا. وحين رفضنا بدأتْ مدفعيتنا تقصفنا. وقد قُتل منّا كثيرون".

الخيانة دائماً. إن الفلاح لايفهم الحياة إلا عبر لونين: الأسود والأبيض.. الخيانة والأمانة. وبهذين اللونين يفسر لوحةَ الألوانِ كلّها.. وحتى تلاوين قوس قزح. فلماذا يوجد البنفسجي؟ والأحمر؟ والأصفر؟ وبقية الألوان؟ إنها توجد بفعل كيمياء الصراع بين الأبيض والأسود. ومع ذلك فإن أمي لم تكن ترتاح إلى هذه الألوان المبهجة.."لِبس الكمال" كما كانتْ تقول.."هو هذه الألوان" وتعني بذلك الرمادي.. والبنّي.. وربما الأسود، بسبب الحسرة الدائمة.. وأسألها.."ولكنكم في فلسطين كنتم تلبسون الزنّار الأحمر.. والثياب المطرزة؟".. فترد علي.."ذلك كان في البلاد".

سيكون على بقية الشعب إذن أن ترفد عتمتنا بالألوان فيما بعد، رغم أن أمي لاترتاح إلى ذكرياتها. وأكاد أتهمها بالجهل إلا أنني أتوقف أمام نصاعة الحزن وبهجة اكتشاف الحقيقة.

تتقدمني الآن وهي تصل إلى جنين. ثلاث أخوات وطفلان في أحد بساتين جنين تحت شجر اللوز يلتحفون السماء في بداية الصيف.. تقول أمي.."كنتُ في الصباح أجمع ما يتساقط من اللوز، وأضعه جانباً في كومة وأمنع البنات من أكل أي حبة منه. وكانت صاحبة البستان تأتي وتأخذ اللوز بدون أن تقول خذي هذه لبناتك".

تتنهد أمي. وأستشفّ بين تنهداتها ذلك الاحتجاج الصامت على الجحود الإنساني على غياب الرحمة والشفقة.. ذلك الاحتجاج الذي لاتبوح به لأن كرامتها لاتسمح لها بالشكوى. وتنقذها الأختُ الكبرى فتروي قصة النسوة اللواتي تذاكرن أسماء البنات الصالحات للزواج فيأتي ذكر إحداهن فتقول امرأة.."البنتُ جميلة.. ومؤدبة. ولكن ياخسارة! إنها لاجئة".

في أي الفصول نحن؟ وفي أي الأزمان؟ كل شيء يبدو كما لو كان خارج هذا العالم.. من عمق ذلك الظلام الذي اجتاحنا. ولابد من الغوص فيه حتّى جذوره.

V

في ذلك المساء الذي خرج فيه الشيخُ حمزة صاعداً الجبلَ ويداه خاف ظهره مفكّراً، كانت أم الزينات تدعم متاريسها بالمزيد من الحجارة فتقيم على أطرافها السناسلَ الحجرية مثل تلك السناسل التي يقيمها الفلاحون حول كرومهم وحواكيرهم لمنع الضباع من إتلاف المزروعات وللتدليل على حدود الملكية، وظلتْ السنسلة موجودة في الحكايات.. فهي حاضرة دائماً عندما تُذكر الأفعى التي اختبأتْ في السنسلة، أو الثعبان الأسود الذي انتصب على ذيله، ثم رمى نفسه من فوق السنسلة فإذا هو في قاب الصبر.. ولكن على مبعدة من هذا العالم المشغول بإقامة السناسل الحجرية وتناقل أخبار هجمات اليهود على حواسة وإجزم وعين غزال، وفي المساء نفسه، كانت طائرة سكايمستر أمريكية يملكها رالف الإبن من نيويورك تهبط في مطار براغ وحمولتها سبعة أطنانٍ وتحيط بها حراسةٌ تشيكية مشددة. لتقلع من ثم فوق القطاعين الأمريكي والبريطاني في أراضي ألمانيا المحتلة، ثم تتابع سيرها جنوباً إلى مطارٍ قديم لسلاح الجو البريطاني في بيت داراس في فلسطين.. وتحطّ هناك بمساعدة أنوار للإضاءة. وعلى بعد خمسة عشر ميلا كان مخيم المشاة البريطاني لايلاحظ شيئاً. ويتم تفريغ الأسلحة والذخيرة وتحمل إلى مستعمرة بيرطوفيا اليهودية القريبة على عجل.

وتهب نسماتٌ من البحرِ، ويزداد الليلُ حلكةً، قبل أن يتّخذ الشيخ حمزة طريقه مرة أخرى منحدراً إلى القرية. أكان يرى في وجومه هذه الرؤيا؟ أم كان مجرد معتوه عاد من الأزهرِ قبل أن يتمم تعليمه وأذهل القرويين بحمولته من مخطوطات النحو والمنطق؟

يتحدث أبو جيدة، السائق الذي يخشى أن يفاجئه الشرطي بدون نظارات، عن رجل عالم يلقي عليهم بالألغاز، غزير المعرفة إلى درجة محيرة.. فهو يسأل.."إذا أخذنا جثة وتركناها تتحلل إلى أن تتحول إلى تراب ثم زرعنا في هذا التراب بندورة مثلا، هل يجوز الأكل منها أم لا؟".. فأقول.." آه.. طبعاً!".. فيرد أبو جيدة:

"لا المسألة ليست بهذه الشكل"

"إذن إليك الجواب. لايجوز أن نأكل منها"

فيهز رأسه ويقول:

"وهذا أيضاً ليس بجواب"

"ماهو الجواب إذن؟"

"لاأدري!"

فكّرتُ بهذا الرجل المشغول بألغازه.. وبهذه المجموعة القروية التي تجتمع كل ليلة تقريباً، وأنا أتتبع خطى الشيخ حمزة وحركة الأضواء وهي تمهد لنزول الطائرة، وشعرتُ بأنني لاأستطيع التوفيق بين الزمنين.. بين نداوة تلك الليلة وخضرتها وبين هذه المجموعة التي تتناقل أخبار المذهلين من الناس.. الناس اللاجئين.
تقول أمي.."كنّا نسمع أصواتهم تتنادى.. كاديما.. وتنهار السناسلُ.. يدوي صوت يشبه الهدير.." ويهرع القرويون إلى كل الجهات يتفرقون ويجتمعون.. ويهرع أخي الكبير تاركاً البلدة عائداً إلى البيت، فيمسكه أحدهم.. ويصرخ به.."إلى أين؟ لقد ذهبوا جميعاً" ويعني بذلك الأهل القابعين في ذلك البيت على طرف أم الزينات.." امسكته الله يرحمه من قميصه.. ولكنه اندفع لا يلوي على شيء.."
وكان البيتُ خالياً.
لاأحد يكمل القصة أو يجمع خيوط الرواية. ففي حلكة الليل صحوتُ على أحدهم يحملني. وبعدها كان صباح باكر وضباب تسميه أمي غطيطة، وتفسر بعض ما رأيتُ وتسميه.. فذلك المكان هو في الطريق إلى الدالية.. وذلك الرجل الذي كان ينادي بين الصخور هو محمد القاسم.. ومن كان يحملك هي أختك الكبيرة. ولا تتضح الصورة رغم هذه المسميات. وأشعر كما لو أن الأمر كلّه حادث حدث أو لم يحدث بعد.

وأقرأ فيما بعد أن الكتيبة الرابعة من لواء غولاني هي التي كُلّفتْ بتدمير أم الزينات ليلة 1948/5/15. ولكن أمي التي لاتعرف هذا والتي لن يضيف لإحساسها جديداً ذكر هذه الأسماء، تظل غارقة في ثرثرتها لتضيف تفصيلا هنا أو تفصيلا هناك وكأنها تطرّز فستاناً فتتذكر أن الشيخ حمزة لم يكن قارئاً فقط بل كان طبيباً أيضاً وذا حس جمالي أيضاً، وكثيراً ما كان يمر على بيتنا، فيشير إلى الصغير الذي تحمله أمي قائلا.."من أين لكم غزال جرماشة هذا؟". وجرماشة هذه أعرف أنها موجودة في مكان واحد فقط هو حديث أمي.. كما أشياء كثيرة لاوجود لها إلا في رواياتها. ويعجبني أن يكون هذا الصغير الذي هو أنا غزالا في يوم ما. ولكن لماذا جرماشة هذه؟ يبدو أنها مكان تكثر فيه الغزلان ربما كان في الروحة التي هي المرعى والمنتزه كما يبدو، وربما كان في الجزيرة العربية. ولكن جرماشة حين تنطقها أمي تشير إلى مكان مألوف. نسيتُ أن أسألها يومذاك عن مكانهاعلى الخارطة، كما نسيتُ أن أستفسر عن أشياء كثيرة بسبب أن كلّ شيء كان يبدو غريباً وفريداً من نوعه، لايترك مجالا لغير الإصغاء. فماذا حدث للشيخ حمزة؟ وماذا حدث لحمولة البشر وآل ماضي؟ وغيرهم..؟ الآن فقط اتذكر أن تفاصيل كثيرة مازالت غائبة ربما لأن العاطفة التي تروى بها الأم هذه الروايات كانت تدفعها إلى تناسي أشياء وأشياء متعمدة، وأذكر أنها حين كانت تتذكر من من أم الزينات استشهد في الثورة قاطعتها لأسألها عن شخص أوردت اسمه.. وماذا كان يعمل. ورأيتُ منها كراهة للسؤال بدون مبرر، وأخيراً اضطرتْ للإعتراف أنه كان صاحب بقالة. هل يعتقد القرويون أن البطل الأسطوري لايمكن أن يكون مثلنا ومن هذا العالم تماماً؟ ربما. ولكن هذه الحادثة جعلتني أسترجع مواقف مشابهة.. كان صوت أمي ينقطع فيها فجأة كأن الأحاديث عن المقدسات لايصح أن تكون هكذا.. وأن لها طقوسها ومراسيمها، وزمنها أيضاً.. والزمن لايأتي دائماً. إنه المؤجلُ إلى حين.

إذن كانت السناسل تنهار في تلك الليلة، ويفقد القرويون صوابهم، ولكن المقاتلين منهم لم يسلّموا بالهزيمة، فقد عاد عدد منهم إلى أم الزينات في الصباح. تروي أمي ان أحدهم عاد إلى بيته بكل بساطة كأن اليهود غير موجودين أو كأن أحداث الليلة السابقة لم تكن إلا حلماً، فاصطدم باليهود،

وطاردوه بين أحراج الزيتون، فظل يشاغلهم ببندقيته الوحيدة بدون أن يدرك أنه يواجه كتيبة وليس رجلا واحداً، وأخيراً اضطر إلى الهبوط في بئر، وظل هناك طيلة النهار، وهم يروحون ويغدون فوق رأسه إلى أن جن الليل، فتسللَ مغادراً قريته وليبتلعه الليلُ بعيداً.

عرفتُ فيما بعد أن الشيخ حمزة ظلّ هناك. ولكن كيف.. وأين؟ لاأدري. وظلّت عدة عائلات.
تقول أمي.. حين وصلنا إلى جنين أرسلَ إلينا محمود الماضي رسولا يطالب منّا العودة ويقول إنه أخذ الأمان لنا من اليهود. ولكن لاأحد فكّر بالعودة. من هو هذا الذي تصفه أمي بالخائن؟ سيكون علي بعد سنوات أن أسمعها تردد بحسرة.."ليتنا متنا هناك ولم نأت إلى هذه البلاد".

إذن فقد كان محمود الماضي هذا على حق رغم أنه كان يود استعادة فلاحيه ليظل صاحب أراض وزعيماً. وتظلّ السناسلُ ذات شخصية أبقى من أسماء الأشخاص، فهي حاضرة دائماً، يتحدثون عنها كأنها مجرد كومة من الأحجار المهشمة التي تنهار عند أول دفعة كما في هجوم اليهود، ويتحدثون عنها وكأنها جدار صلب يقف عاتياً، فيمنع هذا من غزو أراضي ذاك. أتخيلها مجرد حجارة تغطيها الأعشاب تنحدر متلوية بين الكروم وعلى حافة الطرق.. وكأنما ٌأقيمت هناك بالصدفة أو أن أناس العصور القديمة تركوها لنا قائمة تتناسل بالصدفة الموحشة.

والحقيقة أن حديث السناسل والأماكن في روايات أمي يكاد يكون حديثاً عن أماكن موحشة لايسكنها البشر، فهي تتحدث عنها كأنها ملك شخصي لها، فلا أكاد أتخيل سنسلة غير معروفة أو أن غير المعروف لايرد في الرواية.

إن تفاصيلَ كثيرة تغيب ليس لأنها غير موجودة وإنما لأنها فقط لاتتعلق بنا أو لا شأن لنا بها، فأين تقف حدودنا وأين تمتد؟

لسنا شاسعين ككون، ولكننا أشبه بسكان الجوز الأقزام الذين بنوا بيوتهم ومصائرهم بين جدران حبات الجوز فاجتاحهم الطوفان، وقوض مساكنهم، وما عرفوا حتى هذه اللحظة ما حدث ولا كيف حدث.

".. كنّا نلتقي بهم في الروحة" تقول أمي.." وكانوا يجمعون العكوب.."، وتبدي استغرابها أنهم عرفوا هذا النبات الفلاحي الخاص، هؤلاء الذين تشير إليهم بوصفهم سكنوا القبانيات، فالشيطان وحده يعلم من أين جاؤا. "كان الواحد منّا حين يسأل أحدهم إبن من أنتَ، كان يقول أنا ابن الجميع". وتعلّق أمي.." كانوا لاأحد يعرف أباه أو أمه. أما يهود بلادنا فكانوا يتحسرون ويقولون.."إننا نريدكم أن تبقوا، فنحن لانحب هؤلاء الغرباء".

ويعزي أحد المتحدثين الجماعة المتحلقة حول نار الأحاديث فيروي أن يهوديا من البصرة حدثه عن أقرباء له ذهبوا إلى فلسطين.. كتبوا له قائلين.."إذا أردتَ أن تعرف كيف نعيش فاذهب وشاهد مخيمات اللاجئين.." وضعهم ليس أحسن من وضعنا. هكذا كانت الجماعة تتنفس بارتياح ريثما يأتي الغد.. أو بعده. كم يبدو ذلك الزمن صدئاً وأبله بلا معنى.. هوة متسعة يسبح في فضائها هؤلاء الذين سيكونون أهلنا وجيراننا ومعارفنا.. أقزام في حبات الجوز.. ٌأطلقوا فجأة خارج مساكنهم لأسباب لايعرفونها.

ويتمتم الحاج أبوخليل ومسبحته ترتجف بين أصابعه.."لا أحد يعرف معنى السبعة المقصودة. فقد جاء في الحديث ستعودون بعد سبع.. وسبع..وسبع.. أهي سبع ليال أم أيام.. أم أشهر.. أم سنين؟ الله أعلم!".

وأحسب السبعة هذه أو السبع وأتساءل.. ماتعني؟ فقد مرت إذا كانت أياماً، وكذلك مرت إذا كانت أشهراً. أما من السنين فقد مر أكثر من أضعاف السبع سنوات. إنها لغز آخر مثل بقية الألغاز التي يلقيها أبو الهول الصخري هذا.. أعني الزمن الذي لانهاية لامتداده.. أبو هولنا المتحرك الذي ورثنا بعد أن أعجز آباءنا.. وربما يظلّ يعجز أحفادنا. كلّ شيء نورثه لهذا الزمن ونترك له ما نملك شيئاً فشيئاً.

لقد رأيتُ الكثير من الصامتين والمأخوذين والراكضين والعابثين والباكين في أحضان أبي الهول هذا.. وكأنه بألغازه يلقي بالسكون على أعماق كلّ هؤلاء ويسجنهم إلى الأبد، ويسجننا نحن الصغار في انتظار أن نكبر، فيأخذنا من آبائنا وأمهاتنا، ويحولنا إلى تماثيل في غابته الحجرية.

V1

هكذا وجدنا أنفسنا في الغابة الحجرية.. كل شيء مسكون إلى درجة أن أي حركة يمكن أن توقظ أبو الهول، وتجعل الحجارة تتكلم، والشجر ينحني ليمسك بأطراف ثيابنا، والتراب يتنفس. وتعجب أمي من قوة قلبها كيف عاشتْ في ذلك البيت المنعزل على طرف أم الزينات في واد موحش أسفل القرية، يستطيع الانكليز أن يطلوا عليه وعلى ما حوله، ويشاهدوا العم محمود وهو يخرج من بيته حاملا شيئاً ما، ليلقيه بين الشجر، فينحدرون ببطء، ويصلون إلى المكان، فإذا الشيء بندقية، وإذا بهذه البندقية تسحب الوالد إلى حيفا، ليتعرض للتحقيق والضرب.. ليدلهم على صاحبها. ولايعرفون حتى هذه اللحظة.."لقد ظل يحتفظ بها.. فلا هو ذهب مع الثوار ولا هو تخلّص منها".

هكذا تتكرر الحكاية. ولكنني لاأفكّر بها، بل في المكان.. في تلكم الأجمة التي ُألقيتْ فيها البندقية وذلك المرتفع الذي أطلّ منه جنود الانكليز وفي كثافة الشجر، وهل كان الوقتُ صباحاً أم مساء؟ إنني أفكّر بالمكان الذي تنبض فيه الحجارةُ وتسيلُ فيه مياه العين.. وتصعد فيه الطرقاتُ الوعرة، ففي كلّ قصة وحديث، يتحرك الأشخاص في مشهد غامض وتخترق القصة والحدث صيافير وزيتون وسناسل، وأصواتُ سكون يكاد يكون مطلقاً. لم ينتقل إلي الضجيج ولا صوتُ آلات الدراسة، ولا مشهد الجموع الفلاحية التي جمعتْ الزيتون وما زالتْ تجمعه منذ آلاف السنوات، ولا حتى الأعراس التي يتحدثون عنها.. إن ما انتقلَ إلي هو السكون نفسه ذلك الذي يخيم الآن على أحراج الزيتون. ويتحرك المشهد حين تقول أمي.."كان الثواريمرون علينا فأعد لهم طعام العشاء.."، فأتخيل مجموعة من الرجال الغامضين على ظهور الخيل يستريحون قليلا في هذا الوادي البعيد عن القرية وعن الطرق الرسمية ثم يجمعون أنفسهم وينطلقون إلى حيث لاأدري، وتكمل الكتب بقية القصص أو تحاول ذلك. ولكنني لاأجد أمي في هذه القصص.. ولا أجد قريتنا بل لاأجد غير أسماء.. أسماء لاينبض فيها حجر، ولايتوعر فيها طريق، ولايكون فيها وقتٌ ولا دخان ولاعشاء ولاسؤال عن بندقية. إن تفاصيلنا لم تُكتب حتى الآن. ألم أقل كأننا لسنا من هذا العالم؟ إننا كائنات أخرى انفصلتْ عن التراب، وتزاحمتْ حولها الأبجدية وحكايات الجن والأماكن المسكونة.

لم يكن ذلك اليوم الذي جاء فيه الانكليز وأطلّوا على الوادي ساكناً بالطبع بل كان يضج بالحركة، ففي ذلك النهار الطويل كان أبي يواجه صوصة في حيفا، وكان بعض أبناء العائلات المحظوظة يقفون في مطار اللّد بانتظارِ الطائرة التي ستأخذهم إلى كيمبرج لإتمام دراستهم. وكانت معسكراتُ المجنّدين قرب براغ في تشيكوسلوفاكيا تعج برجال العصابات الصهيونية وضباط من جنسيات أمريكية وروسية للتدريب.. وكان مطار رياق اللبناني في البقاع مشغولا بإعداد الأضواء اللازمة لهبوط الطائرات ليلاً، وإعداد الشاحنات لنقل الأسلحة المقبلة إلى المستعمرات اليهودية.
العالم كلّه خارج حبات الجوز منهمك في حركة متواصلة تتجمع خيوطها حول هذه الرقعة الصغيرة من الأرض التي اسمها فلسطين المسكونة بحجريتها وبأبي الهول القابع وهو يلقي أسئلته غير المفهومة على فلاحيها ولا أحد يجيب.. لا الشيخ حمزة ولا أبو درة.. ولا الحاج القطروز الذي ظلّ آسفاً لأنه ترك الدراسة مبكّراً وقطرز وراء الحراثين.. ولا أمي نفسها التي شاهدتْ مؤونة بيتها لموسم كامل تضيع في الشيد والتراب.

كانوا يسمونها القبانيات فحسب، ويعرفون أن يهوداً غرباء غير يهود البلاد يسكنون فيها خارج أحلام الفلاحين وترابهم وملحهم ومائهم.. خارج الفتن وصراع العائلات وهموم تعليم الابن الأكبر.. كانوا يسكنون فحسب، غامضين لم يتضحوا بعد. أما الواضح فكان هذا الطوق الانكليزي الذي يأتي بين فترة وأخرى.

يقول أبي.. كان معهم جنود سود من السنغال، وهنود من السك، ويوماً التقيتُ بواحد منهم بلحية كثيفة جالساً على حجر فسألته عن دينه، فقال سك والحمد لله. ويضحك والدي. كيف يكون من السك ويحمد الله؟ جندي مجهول.. كما هم المئاتُ الذين يرقدون الآن تحت نصبٍ في مقبرة نظيفة مزروعة بالأشجارِ ومعتنى بأعشابها على أطراف بغداد.. مئاتٌ جمعوا تحت نصب واحد كُتب عليه بالانكليزية أنهم ضحوا بحياتهم في سبيل المملكة! أي مملكة هذه التي جاء هؤلاء الهنود إلى بغداد ليضحوا من أجلها؟ لابد أن ذلك كان في زمن قديم لاحدود لأطرافه. مئات الهنود يرقدون الآن مكومين أو رماداً تحت هذا العمود الحجري في بغداد. وعلى الأنصاب الحجرية أقرأ كلمات محفورة في الرخام.." زوجتك المحبة التي لاتنساك".."أيها الموتُ.. أين لسعتك القاتلة؟ أين انتصارك؟".. أبياتٌ من الشعر الانكليزي كتبها طبيب اكتشف علاج الملاريا، مزهوا بانتصاره، فما الذي جاء بها هنا؟ وأي غباء جعل هذه الزوجة أو الأم أو الحبيبة تنقش هذين السطرين المتعلقين بالانتصارِ على البعوض.. على شاهدة ضائعة تحت شمس الشرق؟ أكانت تظن أنهما كتبا لرثاء الشهداء أو لتمجيد المحاربين؟ يالهذا الحزن الذي صعد مثل غيمة وبلّلَ وجه الأرض قبل خمسين عاماً أو أكثر، وتبدد عندما تبدد من يحمله وما عاد حزناً!

إن الأحفاد الذين يلمحون طرفاً من هذه الغيمة في سكون الجدة أو الأم، هم أقلّ الناسِ احتفالا بأخذ نصيبهم من هذا الحزن أو هذه المشاعر بالزهو، فلهم سيكون نصيب في حل الألغاز ومواجهة مسائل الوجود بنضارة غير مسبوقة وعليهم أن ينتظروا قبل الدخول في هذا الليل أو عليهم أن يحتفظوا بشيء غامض لا أدري ماهو.. قد يكون هذه اللامبالاة.

وأحسب بدقّة كيف أن جندياً يموت في الحرب الأولى، سيعيش حسرةً في قلب أشخاص قريبين منه.. ولكن حتى هؤلاء مصيرهم أن يموتوا.. فما الذي يبقى إذن؟ أهو حزننا الخاص هذا الذي يرافقنا الآن أم هو شيء ورثناه من الماضي.. ماضي الأم والأب.. وما خلفهما من آباء وأجداد

ضغطوا بكل ثقلهم ليظلوا أحياء في هذه المرارة غير المفهومة؟ سيقول والدي.."أنحن أصحاب أحزاب وتحزبات وما زالت الضباع تأكل جثث رجالنا؟". ويبدو لي هذا التعبير بليغاً، أو شبيهاً بحكمة تُقال لترسم سلوك حياة كاملة. وما بعد هذه الحكمة هو الصمت.. الصمتُ إلى الأبد.

الانكليز.. والسناسل.. والقبانيات.. والروحة.. أي كلّ ما هو غير موجود في الكتب، ولاتستطيع التقاطه إلا كما تلتقط ذكرى ليلة شتائية بعيدة، أو حادثاً من حوادث المطر في طريق ما.. لاتدري أين كان. لماذا نحن مجهولون إلى هذه الدرجة؟ هذا الذي أحب جنّيته إلى أن قوضتْ حياته وعقله وما زال ساهماً يسمعها تناديه كلّ ليلة.. فيهب من نومه لينطلق إلى حافة الكون.. وهذا الصامت المنعزل صاحب لغز تراب الجثّة الذي يحيره ما يفعله بالثمار الطالعة منها.. وهذا القطروز الذي تحدب بدون ثقل بيديه المرتجفتين.. وصاحب الخوذة الذي لم يعد يمتلك غير قسوته وفظاظة.. وأخيراً هذا الخال الذي قضى حياته في خيالي حاملا بندقيته من مكان إلى مكان.

إنني أشعر بقرابة عائلية من كلّ هؤلاء.. وكأنهم يحدقون إلي وينتظرون أن أخرج بهم من ظلامهم.. حين أصلُ إلى حلّ الألغاز.. ألغاز أبي الهول.. سيخرجون واحداً فواحداً وينفك السحر عنهم.. ويتحركون. ولكن من أنا حتى أجمع هذا الشتات الكبير؟ وهل تكفي ذاكرةٌ واحدة لاستعادة ملايين التفاصيل؟ وأنّى لي أن أدرك بماذا كان يفكّر الشيخ حمزة.. وما كان يعنيه؟ إن تفاصيله تغيب في ماضيه فقد سقطَ دون أن يلتقطه أحد.. كما تسقط ثمار شجرة الجوز ولاتجد من يسجل تاريخها، وكذلك سقطَ هؤلاء.. قبل أن ألتقطهم أو يكون لي من العمرِ ما يمكّنني من اجتذاب اهتمامهم ليتحدثوا إلي أو ليهتموا ببقائهم.. فحتى هذا الاهتمام لم يكن يعنيهم كثيراً. كلّ شيء مختصر في أحيانٍ كثيرة.. مختصر إلى درجة الإشارة فقط في عبارة واحدة أو سطر واحد أو اسم. ويترك كل منهم للوطنِ أن يتغلغلَ فيه حتى جذوره، فتجده مبتّلاً يهتز أو ناضباً إلى درجة الذبول والانكسار.. ثم هو لايقول شيئاً. كان يغذّيهم شيء غامض في هذه الغابة الحجرية.. خارج قرارت الأمم المتحدة وخارج الصحافة.. والكتب المدرسية وأخبار الرؤساء.. وخارج الصراع..أو ما نظنّه صراعاً. اشتعلوا وانطفأوا. هكذا يراد لنا.. وكأنما بقسرٍ من نوع ما ..أن نتجول بين الأغصانِ المتفحمة والتماثيل الحجرية ونقلب هذا الحجر أو ذاك، ونشقّ طريقاً بين الأعشابِ الطويلة النامية والأحراش لنكتشف أصولنا.. قريتنا.. أو وطننا. بدون مساعدة من أي نوع كان.. غير هذه المشاهد الغامضة لأناسٍ تركناهم وراءنا في الغابة أمواتاً أو أحجاراً. سأشعر بالنفور من كل هذا الظلام وأصاب فجأة بالدهشة ذات يوم.

كانتْ زائرة ذات أهمية غير عادية قد جاءت من البعيد.. طويلة بحجم يكاد يكون هائلاً ترتدي ملابس ثقيلة. وتشد على يدي بقوة أشعر معها كأن حجراً أطبق على يدي. كانت مثل خيمة تسير، بعينين قويتين وحواجب كثيفة.

وتسألني الزائرة.."كيف فكرك ببلاطات الشُقّاق؟"..فأقول.."راحتْ على الذين راحتْ عليهم"

ربما كان امتحاناً.. ذلك أنها أطلقتْ إشارة، وتلقفتها فوراً، ولكن جوابي لم يكن صادقاً، ولانابعاً مما أريده أو اعتقده.

وعادتْ تقول.. "يعني راحت؟"

وأصر على القول.."نعم"

وينقطع الحديث، وتتحول الزائرة عنّي.. ولكن بعد أن انتصبتْ في ذاكرتي بهذا الاقتضاب الموجز الذي اختصرت فيه سؤالها عما فعلْته، وعما أفعله.. وعما أفكر فيه.. وما هو أنا تحديداً. وأشعر أنّي لمحتُ في عينيها نظرة ساخرة وهي تستدير عنّي.

قالت أمي عنها.. هي ليست رجلا ولا أنثى. إنها كما يسمونها "رجالية كانت تخرج مع الحراثين". وتذكرتُ الحجر الذي أطبق على يدي. وأسألها.. ماذا تفعل هنا؟ فتقول إنها تبحث عن شخص قتل أخاها منذ أيام البلاد، وكلما سمعتْ أنه في بلد سافرتْ بحثاً عنه. ويضاف إلى الدهشة شيء من الرعبِ الهاديء. وأسألُ أمي.."وإذا وجدته.. ماذا ستفعل؟"
لاتتعب أمي وهي تعيد رواية القتل كما سمعتها.. ولا تجيب عن سؤالي.

هاهو حزن هائلٌ تختزنه هذه المرأة/الرجل. لم يعد حزناً بل رغبة صامتة في العثور على قاتل أخيها.. وهي تلتفّ بعباءة سوداء وتشد رأسها بما يشبه العمامة التي لايظهر تحتها شعرها الأشيب. هي في الخمسينات من العمر، وربما تجاوزتها قليلا. أما الآن.. فأين تكون؟ وماذا فعلتْ؟ هل وجدتْ ما تبحث عنه؟ إنها تضيع في تضاريس أيامي مثل بذرة صلبة لاتنمو. ويطالبني الخيالُ أن أطلقها من التربة وأنميها لتستوي شجرة أو شيئاً مفهوماً. ولكنني أفضل معها، شأني مع الكثيرين، أن يبقيها بذرةً غامضة وصلبة.

لاأحد ينمو حتى الآن من سكان الغابة الحجرية، أو أنني لم أجد بعد الوقتَ الكافي لأجعلهم ينطلقون باتجاه المستقبل أو الجهات الأربع.. باتجاه مصائر لم تتحقق. لقد توقفوا عند اللحظة التي كانت الأشد تأثيراً.. وبعضهم واصلَ حياته إلى أن شهدتُ نهايته وقد ابتلعه الموتُ الأشد غموضاً من حياته. ليس لي الحقّ في إطلاق هذه الكائنات الحقيقية. تلك التي لم يخلقها خيالي، خارج غابتها وطبيعتها وخيالاتها.. ليس لي الحقّ في كتابتها كما أشتهي.. سأنتظر التفاصيل.. تفاصيل هذا السكون الذي يقيدهم.

V11

وأسألُ أمي ذلك التمثال الحجري الذي فاجأني بهرمه ذات يوم، وقد ذهبتْ قوته وقوة صمته فصار هشّاً تقريباً:
"أتعرفين دوروثي غرود؟ أسمعت بها؟"
فتلتفتُ بغضب وكأنني نطقتُ بشتيمة:
"ماذا؟"
فأقول:
"هي عالمة آثار.. ربما صادفتها ذات يوم وأنت عائدة من بئر الهرامس صاعدةً إلى أم الزينات.. كانت تحفر في مغارة الواد قريباً منكم"
وألمح شيئاً من الحيرة المعذبة على وجه أمي ومسحةً من الخجل، فأخجل من خشونتي وغموض سؤالي، فأضيف:
"قرأتُ عنها في الكتب"
فتقول:
"ياولدي.. أنتم تعرفون أكثر مما نعرف، فأنتم تقرأون. ونحن كنّا أناساً لاقراءة ولا كتابة. كان يأتي إلى بلادنا منذ وعيتُ أناس كثيرون.. انكليز وروس.. أخوك كان يرطن معهم"
وأسأل:
"أتعرفين ماذا كانوا يريدون؟"
"كانوا يتجسسون حتى يأخذوا بلادنا.. وأخذوها"

ولكن دوروثي غرود هي التي عرفتني كيف كنتم تحتضنون أمواتكم فلا تسمحون لهم بالنوم خارج المغارة أو البيت. وإن تكاثروا وضعتموهم قريباً من عتبة الباب. وهي التي عرفتني بأن عاداتكم في سكن الجبال والارتفاع إلى الأعالي لم تغادركم منذ عشرة آلاف سنة. لقد اختار بعل سكن المرتفعات.. ومن مكانه ذاك حين كان ينحدر كان ينحدر معه الخصب والربيع لينتشر على وجه الأرض. أي أرض كان يسكنها سكان الأعالي الذين قدسوا الرقم 7.. سبع سنين وسبع سنين.. وحين قاوموا الجفافَ قاوموه باسم الكون كلّه.

أتعرفين ماذا كان ذلك الشيخ العراف.. الشيخ حمزة؟ ذلك الذي كان حين يقف قريباً من قمة الكرمل، تتحرك أمام عينيه إلى الغربِ سفن الصليبيين وراياتُ الرومان واليونان.. وتأتيه من القرى المسورة عطايا الفلاحين لإقامة احتفال العام الجديد؟

الشيخ حمزة الذي أنكرته قراراتُ الأمم المتحدة وحسبوه كاهناً يهودياً لم يكن يهودياً، ولا عرف ماهي اليهودية التي يتحدثون عنها.. إلا من تلك الأخبار المقبلة من القرون السحيقة.. والتي لم يتحقق أحد من كذبها أو صدقها.. هذا الشيخ ربما لو كان حياً لحدثني عما فعلته دوروثي غرود.. ولربما كان شبحاً يتابعها وهي تنقّب في مغارة الطابون أو مغارة السخول أو مغارة الواد. وكانتْ تحاول أن تبعده عن بصرها هي المحتشدة بخيالات التوراة.. وتنسى ظلّه الثقيل الممتد فوقها وهي منكبة على الصخور تقلّبها.

"آه.. كانتْ هناك مغارة سيدي المجاهد. وحين كنّا صغاراً نطلّ من بابها.. نشاهد المجاهد راقداً يغطّيه دثار أخضر، وعلى وجهه منديل"
وتواصل أمي التذكر:
"كان من المجاهدين.. وبعد استشهاده وضعوه في المغارة فظلّ كما هو.. وحين كان أحد من الناس يتجرأ ويحاول رفع المنديل عن وجهه لم يكن يستطيع، فالمنديلُ يلتصق بالوجه تماماً.."
ويعلّق والدي:
" المغاور مليئة بالمجاهدين"
ويتحرك في خيالي عدد من الصغار يدخلون مغارة تتضح على جدرانها آثار الحفر والكشط. أحدهم يتناول عظماً أو جمجمة.. وتغيب الصورة.. وتظلّ معلّقة في فضاء ذلك الزمن الذي يذهب دائماً .. ولا يأتي.

إن الأشباح التي تزور الفلاحين أكثر عدداً من الأحياء.. وربما كان السبب هو أنهم لم يكونوا يسمحون بدفن أمواتهم بعيداً عن عتبة الدار.. ولئن بدأ هؤلاء بعد قرون بمغادرة البيت، والانتشار في كلّ مكان، فقد أصبح العويلُ قافلة تحيط بقرانا المسورة بالأسوار الحجرية ثم بالسناسل.. تشاهده متلوياً.. ومتمدداً كما لو كان طقساً لابد من إقامته دورياً.

وفي إحدى الزيارات ذات المغزى يتنبأ الجد لحفيده بسنوات من الرخاء والجدب.. أو يدلّه على جرة مدفونة ظلّتْ في أصل زيتونة.. أما نحن فقد غادرنا الأجداد منذ زمن طويل..ولم يعد أحد يتذكر هؤلاء الذين انحدر منهم إلا كأشخاص من الماضي..اولئك الذين سكنوا هذه الجبال أو تركوا هذه الكنوز.. أو بنوا هذه الآبار وهذه الأحواض الحجرية لتجميع مياه المطر.

وتهز رأسها أمي حين أفتح كتاباً وأرفعه أمامها قائلا:
"أليس هذا الفستان هو نفسه الذي كنتم تلبسونه في أيام البلاد؟"
وتحدقُ في الصورة بين مصدقة ومكذّبة:
"نعم إنه مثل فساتين بلادنا"
"أتعرفين أن هذه الصورة تمثل امرأة فلسطينية عاشت في فلسطين قبل ستة آلاف سنة؟"
"كل هذا صحيح، إن الذين يكتبون يعرفون أكثر منّا"

وأضحك متمنياً أن تدرك أمي عمقَ المجهول الذي هو شعبنا.. رغم كل الكتب الرسمية. وأتخيل سجلات كاملة ومكتبات برفوفها تحترق فجأة فلا يجد علماء اللغات والأجناس والتاريخ ما يفعلونه.. إلا أن يرسلوا إلى كلّ الفلاحين طالبين منهم أن يأتوا ويحكي كل ماعنده.. ليصير التاريخ مرة أخرى.. وهذه المرة حقيقياً.
وأتخيل العلماء الأفاضل وقد جلسوا وفتح كل منهم كتاباً أبيض في انتظار أن يبدأ الفلاح حكايته. ولكن من يتذكر حادثاً كونياً واحداً؟
لقد قالوا كلّ شيء في الماضي وتخيلوا بعل وإيل وصنوف الآلهة ورتّبوا أمورهم ثم رقدوا مع الألواح.. ممتلئين بالثغرات كما هي الألواح الطينية والحجرية وامتلأتْ سنوات أحفادهم بغزاة من كل جنسٍ ولون.. قريةٌ تقام فوق قرية.. وخربة فوق خربة.. وحين أتذكر الأسماء الكنعانية العجيبة.. ولكن المألوفة للفلاحين.. بيت دجن وعين شمس والكرمل وعين جالوت والدالية وعين حوض والياجور وأم الفحم.. أصاب بالدهشة من هذه القرابة الحميمة بين أصوات نُطقتْ قبل آلاف السنوات.. وأصوات هذا اليوم التي أسمعها. ترى هل يعيش في لغتنا وأزيائنا وطقوسنا كل هذا الماضي ولا نكتشفه تحت القلبِ تماماً؟ أو عند ذلك المنعطف من الجبل؟ أو تحت هذه الدالية؟
ولماذا لايكون كل هذا مساوقاً لنا في الزمن، ولكنه يعيش في غابة تحجرتْ واختفت الطرقُ إليها؟
إنهم ينتظرون حركة ما في السكون إشارة.. ويستيقظ كلّ شيء، ولكن من يوقظهم وقد توقّفت الأحلام عند مغارة سيدي المجاهد.. وما عادت تعرف أنه على مقربة امتلأت المغاور بالأقرباء والأهل، بسكان الماضي اولئك الذين حضروا الفاردة وحرثوا الأرض ودرسوا القمح نفسه الذي نأكله.
هل نحن مسروقون من ذاكرتنا أم العكس؟ تخطفنا الأشباح التي تخطف الأطفال والأبطال الصغار عادةً ليعودوا بعد ذلك إلى بلادهم.. ويتسيدوا.
"هل تعرفين دوروثي غرود يا أمي؟"
أنا متأكد أنها لاتعرفها. وإن عرفتها فاربما كتبتْ دوروثي غرود في مذكراتها شيئاً عن لقائها بفلاحة شابة نظرت إليها باستغراب وهي تشاهدها ببنطلونها القصير وقبعتها الضخمة ونظّاراتها الطبية، ترافق الرجال صاعدة في الجبل. وربما علّقت الانكليزية بكلمات ضاحكة على منظر الفلاحة التي اتسعتْ عيناها دهشة وهي تبصر عالم القرن العشرين يمر إلى جانبها، ولم تعرف ماهو.

إن الحجارة نفسها في هذه الغابة تصاب بالهرم. ونكتشف فجأة كم كنّا أيتاماً في هذا العالم لم يكتب لنا أحد لوحاً ولا جعلنا نحفظ نشيداً.
"كنّا نتعلّم بالشحبار والقصب. هذه هي تركيا وأيام الأتراك"
لهذا السبب كان والدي يكتب في دفتر حساباته وصل بدل واصل، وينشد أشعاراً غامضة عن أبو زيد الهلالي وصديقه ذياب. ولا أفهم هل كان يتحدث عن أناس يعيشون بجوارنا..أم ماذا؟ وأغلب ظنّي أنه كان يعرف هؤلاء معرفة أكيدة.. وإلا فكيف حفظ أسماءهم؟ ولماذا كان يردد أشعارهم؟ وما أهمية هذا كلّه؟ هل له علاقة بفلسطين؟ ومع ذلك فقد كان التعليم بالنسبة لأبي مقدساً.
قال لي مدير المدرسة أو قال لطفل بجانبي، وأنا في مستهلّ سنتي الأولى في المدرسة:
"لولا عيون أبيك ما رأيتَ هذه الكتب"
ولم أدرك إلا فيما بعد مغزى هذه العبارة. فقد فهمتُ فيما بعد أن والدي استاء جداً من المدرسة التي تعلّم الأطفالَ بلا كتب، فظلّ يلاحق المدير حتى أجبره على توزيع الكتب على الأطفال. ونلتُ نصيبي بفضل إلحاح والدي. وأتساءل.. لو لم يحدث ذلك، هل كان المدير سيبقينا بلا كتب؟ وهل

كنتُ سأصل إلى معرفة أن دوروثي غرود جاءت إلى أطراف قريتنا ونقّبت في مغاورنا.. وعبثت بعظام أجدادنا؟ هل كنتُ سأصل إلى الماضي بلا كتاب؟ كم نحن أيتام بشكل فادح.. بدون هذه الرحلة عبر آلاف المصائد وخاصة مصيدة التوراة التي نسجت رواياتها على أطراف بلادنا.. في صحراء بعيدة عن مكان لايعرف إلا الشيطان وحده في أي بلاد كان.. ولكنه ليس فلسطيننا بالتأكيد.. ليس أمي ولا الشيخ حمزة ولا الحاج القطروز ولا هذا الجبل. فقد كنّا نحفظ حتى أمواتنا معنا حتى لايسرقهم أحد ويدعيهم لنفسه.

فليتبن الشيطان هذه الأسماء العجيبة هيرتزوغ وفايغن وبرودفسكي ولوين.. فحتى التوراة لاتعرف هذه الأسماء.. ولم يمر أصحابها في ذاكرة صخرة أو طريق من طرق بلادنا.

V111

كان يشبه رجلاً من الهذيان الخالص وهو يتّخذ طريقه بين الصيافير وينحدر إلى بيتنا. وعلى غير عادته لم يضع يديه خلف ظهره متمهلاً كما يرد دائماً في الحكايات ولا سار صامتاً كما يسير دائماً في خيالي، بل كان يتقافز وتتطاير أطرافُ دمايته فتكشف عن سرواله الطويل الأبيض ونعليه.. ويكاد ينزلق متعثراً. ذلك هو الشيخ حمزة الذي ظلّ ساكناً ثم تحرك فجأةً فإذا هو يهذي وهو يسحب وراءه أخبار البلاد مثل غيمة وينشرها فتخيم على بيتنا.
ويقول الذين شاهدوه إن سحابة الغبار التي كان يثيرها وهو ينحدر كانت تشبه جيشاً فاتحاً، وكان صراخه يتطاير فلا يصل منه إلى سمع أمي التي كانت تراقبه إلا وهوهاتٌ هي وهوهات الريح للفضاء.
لقد جن الرجل.. أو هكذا حسبناه في تلك اللحظة الهاذية وهو يقتحم سكون الغروبِ قادماً من الأعالي.. من البلاد وعلى شفتيه تمتماتٌ بلا معنى وبين يديه شيء سجين لاينفلت. ولم يكن يحمل شيئا غير جسده، وهو يسرع إلى بيتنا ويدخل من الباب لايكاد يلتفت إلى أحد باحثاً عنّا نحن الصغار.."أين هم أحباب الرحمن؟"
وتركته أمي يهرع إلينا ويحتضنني ثم يحتضن الأخت الكبيرة وينحني على الرضيع متمتماً بكلام غير مفهوم.
كانتْ تلك هي ربما أول مرة تظهر فيها الأبجدية والكلمات بلاهتها أمام أعيننا.. ونشعر بأن شيئا ما غير مفهوم يحدث حولنا.. شيء عصي على الإدراك، وربما على المشاعر، يجتاحنا بطوفانه ويفتح لنا عالماً بدأ يهذي من حولنا. عالماً من الإشارات السريعة والوهوهات يبدأ من الإعالي قادماً هذه المرة ليحول العالم من حولنا إلى هواء من الصمت.. وسهولٍ من العشب اليابس.. يشبه ذلك الصمت الذي انتاب أمي وهي تستمع إلى الشيخ حمزة وهو يسرد ليلا أخباراً لاتفقه لها معنى. ويشبه هذا النعاس الحجري الذي ينتاب كلّ من حولنا فيحوله إلى جسم ينحني ورأسٍ يهتز بإيقاع رتيب. هكذا عرفتْ أمي أن حيفا سقطتْ وأن أدعية الشيخ حمزة ربما هي السور الباقي الذي سيمسك عنها هذا الطوفان بعيداً أو يحوله إلى أرضٍ أخرى.

لم يكن أخي الكبير قد عاد بعد، وهو سيعود بالطبع، وكذلك والدي، ليسكن الجميع في عتمة الوادي وسكونه يستمعون إلى ضجيج قادم لايهدأ، تحيط بهم المغُر التي يتذكّر كل منهم الآن أياً منها يصلح ليكون ملجأ.. ويستأذن الشيخ حمزة للذهاب في العتمة.. وهم يتشبثون به ويكاد يأسه يخترق ما تبقى من مغُرٍ وسناسل تطوف في أذهانهم.

كان مهزوماً مع كتبه، وربما مع شهادة الأزهر التي لانعرف هل حصلَ عليها أم لا؟ وربما كان يشهد الأهلَ على معركته الأخيرة التي خاضها بدون أن ينجح في رد النبوءة عن السنوات العجاف.."ستعودون بعد سبع أو سبع أو سبع.. والله أعلم".. و"سيمتليء وادي الملح بالشجر، وسينتصر العرب إذا وضعوا يدهم بيد المسكوف".
إنها الصدى أو هي قائمة الأبجدية في تاريخ الشيخ الذي لايعرف أحد أين ذهب بعد تلك الليلة.

هاهي ذي أخيراً بذرةٌ صلبة بدأت تنمو في أعماق الغابة الحجرية فيصير لها ماض، وحاضر ومستقبل. وأكذّب تخيلاتي عن الذين سكنوا فجأة وكأنما قيدهم سحر ساحرٍ في مدينة مسحورة فتحولَ بعضهم إلى تماثيل، والبعض إلى أسماك ملونة، وتحولَ الوطن ماء عجاجاً متلاطم الأمواج.
"أيها الصياد هيا الق بالشبكة".. هكذا أمر الملك بعد أن أزعجه هذا السمك الذي يصطاده الصياد، ولكن ما أن يبدأ الطباخُ بشيه حتى يتحول إلى فحمٍ أسود.
ويذهب الصياد. فلا يجد بحراً ولا سمكاً.. بل فلاةً لا أول لها ولا آخر، فيقرر الملك الرحيل بحثاً عن الماء والسمك.. وحلّ هذا اللغزِ المحير.

لم يبقَ من الوطن إلا صحراء يتردد في جنباتها عويلٌ غير مفهوم كأنما ترتجله النجوم أو الحجارة. هذيان متواصل يقول فيه كلّ شخص مايشاء، فينضاف إلى الهباء هباء من دون نهاية لهذا الجفاف.
"إنها سبع سنوات عجاف.." يقول الحاج القطروز.."أو هي سبع وأربعون أو سبع وسبعون.. والله أعلم!". ويحيرني كيف أن رجلاً بمثل هذه السن يمكن أن لايعلم. وأضحك في سري من هذا الوقار الذي يلازم القطروز ويجعل من حوله يستمعون وكأنما الخلاص غداً.. أو بعد ساعة.

سأستنطق الشيخ حمزة أو تلك البذرة التي اهتزتْ ونمت فجأة وتدحرجتْ إلى القاع وبدأت تكبر وتتفتح وتبرز لها جذور دقيقة ووريقاتٌ خضراء، وتتحول في لحظة إلى رجل/شجرة تهمس في الظلام بأسرارِ الموت والميلاد. ألم تفقد عقلك بين تلك الصيافير مثل صاحبنا الجندي التركي؟ ألم تتدحرج بين المغُر باحثاً عنها، تلك الجنّية التي كانتْ تحميك وتمنع عنك الرصاص والغزوات؟ أنتَ لستَ معنا الآن.
ولكنك كنتَ في الماضي، كنتَ بمعنى أن لك جسداً يطوف بين صيافير الكرمل ويتفقّد المغُر ويراقب نمو الحجارة والشجر، ويشيح بوجهه عن الفلاحين الجهلة الذين أحببتهم. كنتَ في الماضي بمعنى أنك لابد صادفتَ دوروثي غرود وهي تنتقل من مغارة إلى مغارة ببنطلونها القصير وقبعتها الضخمة ونظاراتها الطبية فأخفيتَ الأمر وحسبته سراً خاصاً بك. ولابد أنك استثارك الفضولُ.. فضول الجسد وفضولُ التاريخ الذي حيرك حين كان ينقطع عند سناسل أم الزينات.
أأمضي في الخيال أم أترك لك هذا الغموض الذي يلفّك؟ إنك واضح الآن بعد أن بدأتَ تنمو. واضح كما لم تتضح في جنونك الأخير حين سقطتْ حيفا كما تقول أمي. وقد تكون واضحاً ربما حين صحوتَ ذات يوم، فإذا بك تفقد عادتك اليومية.. دوروثي غرود.. التي لم تكن تعرف اسمها حتى، أو لم تكن تعرف من أين جاءت.. أمن المغُر المنتشرة على سفوح الكرمل أم من صفحات ألف ليلة وليلة وغزوات الملك شركان:
"أيتها الجارية.. هيا فقد اشتاقت الأوطان لأصحابها"

ولكن خَدعتك نفسك فالعكس هو الذي حدث بالتأكيد، ولم ترحل أنتَ بل هي التي رحلتْ متأبطة مجلداتها الصفراء، ووراءها قافلة من السيارات محملة بالتوابيت والترابِ والجرار.
تعال أيها الشيخ ولنكن واضحين تماماً، فالآن لاصخرة تمتلك ذاكرة ولا بشر في هذه الصحراء. لاتخف.. فلن أكون أبا الهول بالنسبة لك.. بل سأكون دائماً هذا الصغير الذي سميته غزال جرماشة، وما زال حتى الآن لايعرف أين تكون جرماشة هذه. لنتصارح حول تلك اللحظة التي هبطتَ فيها إلى الوادي، متتبعاً آثار الندى فوق الأعشاب متلصصاً على غير عادتك، وفي عينيك شيء آخر غير ذلك الشيء الذي يقرنه الفلاحون عادة بزيادة العلم.. أي بالجنون.. شيء خلعتَ فيه نفسك التي عاشتْ حتى الآن، وأظهرتَ فيه بريقَ اللهفة ورغبة الجسد.

لم تكن أنتَ بالتأكيد من نبه دوروثي غرود إلى ظلك وهو يخيم عليها وهي تنقّب وتحفر وتمسح العرقَ عن وجهها فتلتصق خصلاتُ شعرها الشقراء المبلّلة بخديها وجبينها.. بل كان ذلك الحس الأنثوي الذي تملكه أنثى السمك. نحن ما زلنا في البحر.. لاتنس ذلك، وما زلنا نصارع التنانين والحيتان، رغم أن كلّ هذا لايذكر إلا في الكتب. بحر غامض يقالُ إنه بداية البذرة وسر اهتزازها.. وجدتَ فيه أنثاك.. وجنونك فيما بعد.
وأسألُ هل كان ضياع حيفا أم ضياع دوروثي غرود هو الذي دفع بك إلى الانحدار من الأعالي؟ أم هو ذلك الوحش الكامن الذي طلبك للنزال فطأطا الجميع رؤوسهم وقالوا سمعاً وطاعة.. فازدريتهم.. وانسحبتَ هابطاً سفوح العقل إلى حيث ينتظرك الوحش؟
لقد حلّ الجفافُ والقحطُ في الأرض حين هويتَ من عليائك ساقطاً بين أشداقه.. أزهري مسكين.. قرأ كتبه المعدودة ربما للمرة الألف، وأصابه الضجر والبلى. ولكن أمي تقول أنك خيالٌ يسير بخشوع وتأبى على خيالي أن يحييك.. أي أن يجسدك بشرياً، أو أن يطلقك في دروب هذه الرواية لتصل إلى موقف تبكي فيه.. أو تنشج كطفل صغير عند باب مغارة خالية مع أنك بكيتَ بالتأكيد.. وربما قبلتَ التراب.. ولا أدري ماذا قلتَ آنذاك.. وأي تجديف قذفتَ به بوجه الناس الذين أسلموك لتحتفظ بسر تلك اللحظة التي ماعاد النهار فيها نهاراً ولا الزيتون زيتوناً. ولتعد مرة أخرى إلى جسدك السائر صاعداً يداك خلف ظهرك ورأسك خال إلا من الهواء الذي يهب من البحر.. والضوء المقبل من البعيد.. ضوء السفن في ميناء حيفا وهي تلقي مراسيها وترحل.

سأقول إذن إنك قرين الهذيان الخارج من النص.. أي نص.. وقرين السقوط والارتفاع في وقت لم يكن يمتلك فيه الأهلُ مقياساً يقيسون فيه مدى ارتفاعهم عن البحر، أو بعدهم عن هذا التل أو هذا هذا الوادي..سيقيسون بعدك بالليلة.. بعد الليلة والنهار بعد النهار. وسينحدرون سنوياً ليقيموا ظلّك من الترابِ ومن زوايا الكهوف وتنتشر نيران الاحتفالات في المخيمات.. وعلى أطراف البلاد التي تحولتْ إلى هوة واسعة.. تنهار أطرافها شيئاً فشيئاً.

لم تعد بحاجة إلى العودة أو البدء من جديد وأنتَ تستقر في مكان ما ربما كان بئراً من آبار أم الزينات أو حاكورة من الحواكير المهجورة التي عاثت بها الضباع وعرشت فوقها أشجار الصبر والزعرور البري.. وغمرها العشب الطويل النامي فاختفى بياض السناسل الحجرية والعظام التي صرت إليها، وما ظلّ غير الندى.. الندى الذي يبلّل الأوراق الخضراء والجذور.. الندى.. والندى وحده.

1X

صديقنا الجندي التركي يصحو أحياناً ويسمع جنّيةً تناديه فيهب وينطلق خارج البيت والكون. ولو لم يكونوا يربطونه بالحبل في أثناء نومه أين كان يمكن أن ينطلق وأي مدى سيجري فيه إلى أن يصل إلى أم الزينات على السفح الجنوبي للكرمل؟
اعتقدتُ دائماً انه كان سيجري.. ويجري إلى أن ينتهي هناك ليبكي عند جدار بيت محطّم بينما تشرق عليه الشمس الدائمة.. شمس جنونه العظيم.

ولكن الندى هو ما يثيرني حين يذكر في الرواية أي رواية ويتساقط من أطراف السريس حين تهتز أوراقه ويجتاز القرويون الطرق التي لاتكاد تظهر إلا في مخيلتهم.. الندى وحده هو سيد الليل والصباح وسيد البداية والنهاية. كان حاضراً ولا شك في تلك الليلة التي استيقظ فيها جدي وأعد عدته للنزول إلى حيفا واتكأ مستنداً في غرفة الضيوف إلى فنجان قهوته ولفافة تبغه قبل أن تصرخ الجدة وهي تجده شبه غاف وميتاً، وقد ارتفعت شمس النهار وتطاير الندى.. كان حاضراً ولاشك حين انتهوا من مهمتهم ودفنوه في حاكورة البيت وغطّاه الندى إلى الأبد، وما زال يغطّيه. إنه لا يشبه الغمام ولا المطر بل الهواء الذي يلتمع فجأة حين يظهر فقط على خضرة أوراق الشجر ويهب الهواء فينشر رائحته المبكّرة على مسافات ومسافات ويتساقط ذائباً مع ارتفاع شمس النهار لتشربه التربة ونكتشفه بعد ذلك في كلّ شيء، أعني في رائحة السريس والبطم والصيافير والخروج المبكّر من الطفولة.
إنه يشبه الطفولة لهذا يظلّ أبدياً لانعرف من أين يأتي ولا أين يذهب، ولكننا نعرف أنه موجود بالأمس واليوم والغد، يشهد لأمي وأبي ولخليل والشيخ حمزة وللمرأة التي مازالت تبحث عن قاتل أخيها ولأخي الذي مات بعيداً عن الندى، يشهد أنهم كانوا صادقين في المحكمة الدولية وأمام قرارات الأمم المتحدة التي تجاهلتهم واتّخذت من الأوكرانيين والبولنديين والبلغار والاسبان والانكليز شهوداً وقضاة.

إنه الندى الذي كان يملأ شعر أخي ويجعله ثقيلا يتدلّى على جبينه وهو يصعد من بيتنا إلى البلد مع شروق الشمس ذاهباً إلى المدرسة. وهو نفسه الذي كان يلتمع مثل قطرات الضوء حيث كان أبي يتّخذ طريقه إلى كرومنا ضارباً في هذه الغابة من الخضرة إلا من صوت الأغصان والأوراق وهي ترتد وتنغلق كلما غاص عميقاً وابتعد يبلّله الندى.

صديقنا الجندي التركي ما زال ساهماً مطرقاً ووحيداً أمام بيته المحطّم يحيط به القرويون وقد آذنت الشمس بالغياب، وارتفع دخان الطوابين في أكثر من بيت. حدث ذلك في يوم ما لم يعد يتذكره أحد لأن الذاكرة الوحيدة التي احتفظتْ به سقطتْ في هوة مظلمة وتركتْ هذا العالم للصخرِ والندى والموج الذي يلاطم أقدام الكرمل.
ويهب الرجلُ من مكانه ولكنه ليس الرجلَ نفسه، ويتطلع إلى من حوله، ولكن ليس بتلك العيون المألوفة نفسها. لقد سرق منه الماضي تماماً وصار عارياً إلا من الحاضر.. من لحظة لن تغادره ولن يغادرها ولو مرت آلاف السنوات. ويتحرك ببطء إلى لامكان.. صغُرتْ في عينيه المسافة حتى ليهم بمطاولة الظلال التي خلّفتها الشمس بين صيافير الجبل، ويصل إلى ماوراءها إلى المرج الذي يمتد بلا نهاية.
ستناديه حبيبته بعد ذلك مئات المرات وقد ضربت له موعداً أبدياً لايجيء ولا يذهب، وسينطلق على مدار السنوات وراء هذا النداء.
ويقولون إنه تحول إلى شجرة متهدلة الأغصان يعبق في أغصانها الندى والتراب، وترتفع وراءها الشمس لتلقي بظلّها الطويل على جوانب الطرق. وكثيراً ما كان الفلاحون يصادفونه واقفاً بعينيه العميقتين وشاربيه الكثيفين منتصباً على جانب الطريق لايحدق في أحد ولا يشاهد أحداً بل واقفاً فقط. عيناه في البعيد كأنه ينتظر شخصاً يأتيه من الجانبِ الآخر. ويتلفتُ الفلاحون حولهم باحثين عن هذا الشخص، فلا يجدون أحداً يلوح بشخصه بين الأشجار. ويعرفون أنها المرأة.. تلك المحاربة التي رافقته إلى الحرب وغررتْ به حتى إستسلم لها تماماً، ويعرفون أنها المنتقمة التي طوت الأرض طياً وسبقته إلى بيته فهدمته على أطفاله وزوجه، فتعتريهم رعدةٌ وتسري في أجسادهم رعشةُ خوف أمام هذا السر الذي هو فوق الأفهام والعقول.

وأعرف أنه الندى.. الندى هو ما أورثه الجنون.
هذا الذي كان منذ البدء ومع مسيرة الزمان مولوداً للهواء، هواء البحر والشطآن، لم يكن طوفاناً ولكنه الطوفان بذاته الذي أغرق السماء وبلّلَ الأرض والرؤوس وتغلغلَ عميقاً في مسارب الروح حتى أيقظ فيها حالة بين النوم واليقظة وحولها إلى سفينة تتأرجح وتخفق كما خفقة الريح بين أشجار الزيتون.

إنه الندى.. وأنا متأكد أنه السيد الذي قسم الأرض وحدد أماكن الآبار والمعابد وكروم الفلاحين، وتناوله السارون مع الفجر بأكفّ أيديهم وبلّلوا به شفاههم الجافة، وأبعده المختبئون بين السريس عن رموشهم، ومسحه الغزاةُ عن أسلحتهم، وتعثّر به الهاربون من تجنيد الأتراك.

إنه لايترك أثراً على الأرض، ولكن في الروح عميقاً حتى جذورها.

مثل هذا الندى لابد أنه غمر تلك الليلة ومئات الليالي االتي انتظر فيها الفلاحون أن يأتي أبو الهول بعد أن فشلوا في حلّ ألغازه منتقماً من أبناء الندى.. أبوالهول الذي امتد على شكل قبانيات وإذاعات غامضة وروايات يرويها العائدون من سوق حيفا أو من القرى التي سقطتْ وأُنتزع الفلاحون من لحمها بأصوات غريبة تطرق الأسماع لأول مرة.

لم ينج من ذلك إلا الأموات الذين غمرهم الندى عراةً في قبورهم مرتجفين بأحداقهم التي اتسعتْ وعجزهم عن النهوض بكامل أسلحتهم. أكانوا أمواتاً حقاً اولئك الذين يتحدث عنهم الفلاحون

كأجدادٍ غامضين جاؤا منذ بدء الخليقة وجاء معهم الندى والزيتون والجبل والبئر وجرن القمح؟ أم كانوا أحياء بلا ممالك ولا فتوحات ولا برونز ولا ألواح.. مجرد فلاحين راسخين في ذاكرة الندى والصيافير وحجارة السناسل؟

لاتعرف أمي من حفر بئر الهرامس، ولكنها تصفه حجراً حجراً، ولايعرف أخي الذي تعلّم الانكليزية من الذي أقام هذه السنسلة القوية وغرسها في خاصرة الجبل، ولكنه يشعر أنها جزء من كيانه تمتد في الروح بعد أن يغيب عنها ضارباً في طريقه إلى المدرسة. ويستند صديقنا التركي إلى أصل زيتونة جالساً مع لفافة تبغه وقد اصفر شارباه، وهو يحدق هذه المرة في الشيخ حمزة هابطاً إليه من الأعالي بين الصيافير صارخاً بما لايفهم.. يلوح ويختفي. ويهز التركي رأسه غائباً عما حوله. لقد ظلّ ليلة كاملة في مكانه وهاهي الشمس تغرق في البحر. ولا شيء يخيف في هذا الوقت سوى هدير القنابل في ماضيه البعيد، وضجيج العسكر وهم يهجمون. كان المرج أخضر أمامه حيث يتسابق الفرسان وينقصف بعضهم مثل أعواد القصب بينما يثور غبار في الجانبِ الآخر من التلال البعيدة وتصل اصواتٌ مثل هدير الريح. أكان ذلك في القرم أم في البوسنة أم أمامه تماماً بين أحراج الزيتون؟
إن ندى ليلة كاملة يشوش التفكير ويحولُ الكائنات إلى ماء، والمعارك إلى هجمات أطفال يلعبون تحت فضاء الله غافلين عن الماضي والحاضر والمستقبل.

ويسند رأسه إلى جذع الزيتونة مرهفاً سمعه إلى مكان ما لايكاد يتبين ملامحه، ولا يرى الرجلَ الذي بدأ يصعد من العتمة ويمر به هذه المرة ويتوقف ثم يهز رأسه ويمضي واضعاً يديه خلف ظهره.
ويكاد يناديه أو ينهض ولكن الفكرة تحاذيه وتفلت منه وراء الرجل وتحثّ خطاها بينما يظلّ جسده مقيداً إلى جذع الزيتونة ثقيلا كما الحجارة.

في تلك الليلة المضاءة وحدها في نهاية نفق مظلم وجدتني محمولا على كتف شخصٍ مجهول سأعرف فيما بعد أنها أختي الكبيرة. وهنا وهناك أناس يظهرون ويختفون بين الضباب. كان الجو يميل إلى البرودة، والصخور مبلّلة ترتفع وتهبط بلا سبب.. إلى بداية النهار وما بعده لاشيء.

في تلك الليلة ربما ولدتُ أو بعدها، وسرى بي الأهلُ من مكان إلى مكان تلاحقهم الأشباح ونبوءة احتلال اليهود، وقتل كل امرأة حامل أو طفل رضيع. وتحت أشجار اللّوز في جنين ربما بلّلني الندى.. أنا وحبات اللوز المتساقطة التي جمعتها أمي في حرص بالغ، ووضعتها جانباً. لم يكن البستان لنا، فلم يعد لنا بستان بعد اليوم.. ولا كان أصحابه.. أصحابنا نحن القادمين من الساحل.. ولا ندري إلى أين بين أرجل العمالقة والأشجار التي تطاول السحب في أعماق الغابة التي اندفعنا إليها هاربين من الطوفان. كنّا صغاراً، وأرى أقزام حبات الجوز في محاولاتهم للإختباء تحت هذه الشجيرة ووراء ذلك الحجر تتسع عيونهم دهشة عند أقلّ حركة من حركات العمالقة الذين يدورون بحثاً عنهم، فيتجمعون كأنما لحماية أنفسهم من العراء الكامل والإزدراء.

كان الذي يسقط بين أيدي العمالقة يؤخذ بين أيديهم مثل جندبٍ صغير يتقاذفونه متضاحكين وننظر إليه من بين الشقوق وأوراق الشجر ولا نستطيع إنقاذه، ونتوقف عن مجرد التفكير بالمحاولة،

ونحن نراهم يمضون في طريقهم وصرخات الجندب الصغير تصلنا، وتطغى على قهقهاتهم وصخبهم.

لن نسمع بأخباره بالطبع ولن نعرف أين ذهبوا به وماذا فعلوا، فخارج هذا المخبأ الذي هو جسدنا الوحيد، وخارج هذا الصمت المبهم، وخارج الغابة لاتصلنا إلا غمغمات عما يحدث.. هناك.. وسيقول معلّم المدرسة الذي أعطاني الكتب بلهجة لاأعرف لها طعماً حتى الآن غير المرارة.. "لولا عيون أبيك لما رأيتَ هذه الكتب". وأُصاب بالدهشة من كوني مخَاطباً لأول مرة ومكتشفاً في حالة تلبس برغبة حادة في القراءة.. لم أبح بها لأحد.

ولكن معلّم النشيد سيكون أرقّ قلباً، فهو بطوله الفارع وسمرته الأفريقية كثيراً ما جلس على كرسي مرتفع وهو يغني أغنية ما، ويدقّ دقّات منتظمة على الطاولة أمامه. لم يكن يتطلّع إلينا أو لم يكن يغني لنا بالأحرى بل كان يظلّ رافعاً رأسه يتطلّع عبر النافذة بينما ينساب صوته الرقيق بنشيد لم أحفظ منه غير نغمته ودقّاته.

كلّ هؤلاء كانوا من العمالقة الذين يأتون من خارج غابتنا، ويتوافدون كأنما قرر الجميع اكتشافنا ومعرفة ما نخبئه. ومع ذلك فلا أتذكر أنهم كانوا يخاطبوننا أو يسألون عن أسمائنا. وحتى عندما اختاروا بعضنا لنقله إلى الصفوف التالية وضعونا في ثلاثة صفوف كنتُ في الوسط منها أتطاول على رؤوس أصابعي، فتتجاهلني المدرسة وتنظر خلفي وتشير إلى أحدهم فيتقدم.. والثاني.. والثالث ثم انصرفوا.. وبقيتُ في الصف الأول. يدهشني حتى اليوم لماذا لم يقع الاختيار علي مع من اختاروهم للإنتقال إلى الصف الثاني.. وكلّي اعتقاد بأن ظلماً متعمداً قد وقع.. أو أن ذلك المدير اللعين هو السبب، فقد انتقم من أبي بطريقته الخاصة.

وأعود من المدرسة في طريقي إلى البيت، فأمر على جندي ضئيل الحجم وامرأة وطفل يتناولون غداءهم ذات ضحى. كان الفصلُ دافئاً والشمس صغيرة والناس في كل مكان. لم يكن هنا عمالقة من أي نوع في مخيم الأقزام هذا. كان كل شيء كبيراً وبحجمه الطبيعي. فهنالك مقهى أبو خضر في الطريق.. المقهى الوحيد. وهنا بركة السباحة الجافة التي خلّفها الجنود البريطانيون. ومن البعيد تلوح البراكسات السوداء التي احترقت ذات يوم، فثبت سكانها في ذهني باسمهم المميز.. البراكسات السوداء، وجاء العمالقة بخراطيم المياه من المعسكر القريب وشاهدتهم يطفئون الحريق وشاهدتُ رجلاً ما بملابس مميزة، يسير محني الرأس كأنه يفتّش عن شيء في التراب ولا يلتفت.. بقميص أبيض وبنطلون أزرق وحذاء بني لامع. وفاجأني شعور بأن ثمة ما سيربطني بهذا الرجل.. وفي وقت قريب تماماً.

ها أنذا أغادر تلك الليلة، وأعرف أن أحجام الناس متساوية تحت هذه الشمس المنبسطة.. وبين البراكسات ما كان مأهولا منها وما كان مغلقاً وغامضاً. نمر بنوافذ ذات قضبان حديدية ولا نرى في الداخل غير الظلام. ليس للندى هنا وجود، ولا أتذكر أنني أحسستُ بغير برد الشتاء وحرارة الصيف. لامنحدرات ولا صخوراً.. بل غرفاً معتمة مازال على جدرانها بقايا دخان.. بسقوف واطئة وبلا نوافذ.. نتجمع فيها ونحن في فراشنا، نراقب الكبار وهم يتحدثون ويصرخون ويتهامسون.

X

"حين كان الأطفالُ يعطشون كنّا نجمع الندى بأكفّنا من أوراق الشجر ونسقيهم". وحين اختلفت الطرقُ وتشعبتْ في الظلمة بين الصخور والشجرِ الكثيف، قال والدي.."اتبعوني فأنا أعرف الطريق". لقد ضلّ الكثيرون طريقهم واصطدموا بكمائن يهودية متربصة عند آبار المياه، ومنعطفات الطرق المعروفة. أما والدي فقد اختار طريقاً وعراً بين الشجر متجنباً كل الطرق المعروفة. وهكذا انفصلنا عن بقية أهل أم الزينات في الطريق إلى الدالية شمالا. ويبدو أن هذا الإنفصال سيسود الرواية كلها، فهنا تتوقف أمي لتعلن عن خلافات بينها وبين نسوة من العائلة، وينصح والدي الذي تجول كثيراً بين القرى باعتزال الجميع واختيارِ طريق لاماء فيه سوى الندى.

وتقول أمي:
"كنّا نشاهد جثثاً على جوانب الآبار، وفي الطرق"
وأسمع في صوتها رنّةَ العزلة كأنها جاءت بعد أن حدث كلّ شيء هي التي أيقظها في منتصف الليل صوتُ البارود فتطلّعتْ إلى أم الزينات فإذا هي شعلة من النار. وأيقظت الحاج الذي لم يكن قد حج بعد، وأخذت طريقها إلى البلد ذاهبة إلى بيت أهلها.. بيت أبو طالب لتعرف ماذا يحدث، كأن هذا البيت نداء غريزي استيقظ في تلك اللحظة، فهرعتْ تبحث عن جواب فيه. وكانت البلدة خالية تماماً. وفوجئت بأخيها يطل من سطح الدار ويصرخ بها:
"ماذا تفعلين هنا؟ لقد غادر الجميع.. ارجعي.. ارجعي"

كان الخالُ وحيداً ببندقيته. ولاأدري ماذا كان يفعل هناك بعد أن أُخليت البلدة سوى أن لوثة أصابته. تقول أمي:
"كان قد وضع النساء والأطفال في البيت، وأعلن أنه سيطلق عليهم الرصاص إذا اقتحم اليهود البيت".

كان صلباً وعنيداً كما تروي عنه، فقد مزقَ رصاص الانكليز كتفيه. ومع ذلك تحامل على نفسه وحمل رفيقاً جريحاً استنجد به، ونجا به من التطويق في أم الدرج.. تلك المعركة التي تسميها الموسوعاتُ معركة أم الزينات، وتسميها أمي واقعة أم الدرج ، وتحمل مسؤولية التقصير فيها

ليوسف أبو درة. ولا أجد حين أقرأ شيئا من كلّ هذا. فلا هذا الخال موجود، ولا حسن الدبور، ولا عشرات الأسماء التي كانت هناك. ولا يبدو أن بشراً محددين قد عانوا من التطويق في تلك الليلة، ولاسمعت حشرجاتهم ولا وجدت آثار أقدامهم ولا صهيل خيولهم. إن التواريخ لاتوقظ البشر بل تستخدمهم حين تغييهم، فيتبددون مثل غيومٍ عابرة، وسترجع أمي بالطبع من البلدة الخالية، وتنحدر إلى الوادي وتأخذنا والنعاس يغالبنا في الظلام.. يتقدمنا الوالد تاركين الخال على سطح داره وصوت صراخه يتردد في أذنيها.

لم نذهب فجأة هكذا، ونتبدد في الوعر كما يقال في الرواية بل اتخذنا طريقنا إلى الدالية شمالا كما اتخذ أهالي القرى المحترقة طريقهم في هذا الاتجاه أو ذاك.. يتنادون عن بعد ليعرفوا بأنفسهم وليتجنبوا المفاجآت، ورغم أنهم يعرفون الطرقَ جيداً إلا أن هذه المعرفة لم تسعفهم فقد التهمتْ الطرقَ فجأة كائناتٌ خرافية وغيلان لبدتْ وراء الصيافير والمنعطفات وما عاد هناك طريقٌ مألوف أو ثابت تحت القدمين.

يحشرج الضبع بصوت كالهدير، ولكنه حين يواجهك ويلمس منك رهبةً وخوفاً، يصرخ بوجهك فتنضبع، وتضيع من قدميك الطرقَ، ويحيطك الضباب، فلا تعرف إلى أين تتجه.. حتى أنك لتفقد قدميك ويديك. أما رأسك فيمتليء بالهواء. وتتحرك مسلوب الإرادة.. تشقّ طريقك وعيناك على الضبع بدون أن تراه، ولكنك تحس به أمامك يسير ويتوقف لينظر إليك بعينيه الصفراوين ثم يسير قفزاً وأنتَ وراءه، ويشقّ لك طريقك. لقد ضبعتَ إذن بهدير المترليوز وأصوات كاديما والضجيج الذي يبعثه انهيار السلاسل الحجرية في الظلام.
والدي وحده امتلك رأسه في تلك الليلة، ليقودنا إلى الدالية بعيداً عن همهمات الضباع وهي تلبد في العتمة لتهب بوجوه القرويين التائهين وتقودهم إلى كهوفها.. ربما لأنه يعرف القصة جيداً، أو ربما لأنه كما يروي صادف الضبع مرة، فضبعه، ولذا لم يعد بإمكان هذا الكائن التغلب عليه.

هي مرة في العمر، وحين يكون حظّك جيداً يكون مدخل المغارة واطئاً، فينسلّ الضبع داخلاً، ويصطدم رأسك بالمدخل، ويسيلُ دمك، فتستيقظ، وترى نفسك بعد أن أتيتَ بالعجب العجاب واقفاً في مكان لاتدري كيف جئتَ إليه، وأي قوة دفعتك لتسلقه، فتتناول بندقيتك وتصوبها إلى الضبع المذهول من انقلاب الوضع، وتطلق الرصاص.. وتطلق، فيتكوم الضبع على نفسه مزمجراً، مكشّراً عن أنيابه بينما تتقلص قوائمه الخلفية القصيرة وتمتد قوائمه الأمامية الطويلة حافراً التراب بمخالبه. لقد صحوتَ إذن. ولكن من يدري كم ستمتد هذه الرحلة وراء الضبع؟ أي البلاد يمكن أن يقطعها المضبوع والناس تنظر إليه راكضاً وراء الضبع وهو يظلع أمامه؟
إني أتخيل المشهد كما لو كان قد بدأ منذ تلك الليلة واستمرتْ فصوله بينما يزداد عدد المراقبين لرحلة المضبوع سنة بعد سنة، ولاأحد يتقدم فيضربه بحجر ولا أحد يوقفه على الأقل أو يقضي على الضبع الذي يتحول إلى صديق أو رفيق.

إن لنا ضباعنا قبل أن نولد، ولنا هذا المشهد الذي سنكون أبطاله فيما بعد، ففي الدالية نجد الكثيرين قد وصلوا قبلنا، وبدأوا يتفقدون الذين ضاعوا في الطريق.
ولا أحد يعرف هل أكلتهم الضباع أم سلبتهم عقولهم وما زالوا يجرون هنا أو هناك لايعرفون ما يفعلون، أم ظلّوا في البلد كما ظلّ الخال العنيد. لم يحن الوقتُ للبكاء بعد.. ذلك البكاء الذي سينطبع في الروح إلى الأبد، ولم يحن الوقتُ للتفجع، فالصغار بحاجة إلى ما يأكلون في هذا

النهار الغريب الذي يأتي والفلاحون خارج حبات الجوز لأول مرة في حياتهم، خارج ملحهم ومائهم، ونهاراتهم المألوفة، وخارج أنفسهم أيضاً. وهنا يحدث ذلك الموقف الغريب الذي جعل من رحلة ليلة واحدة ألف عام مما يعدون، فقد قررت الأم العودة إلى البيت على الأقل لتوفير الطعام لنا، وصحبها أخي الكبير ووالدي في طريق العودة ليلا. الطرق الوعرة نفسها، ولكن بلا أطفال يصرخون بين ساعة وأخرى طالبين الماء، فتميل إليهم الأكف بقطرات الندى.
كان الجبلُ ملغوماً بهمهمة الضباع، والظلال تتخذ أشكالا تتغير بين لحظة وأخرى، ولا صوتَ يسمع غير حفيف الشجر وهم يمرون.
وهناك في وحشة الوادي لايبدو أن أحداً قد اقترب من البيت، فالظلام يحيط به ويخفيه. وحده الحمام كان مستيقظاً حين دخلوا، فبدرتْ منه حركة ما زالتْ أمي تتذكرها. رفرفَ الحمام على وجوه وأكتاف القادمين، وانتشر في العتمة رفيفُ الأجنحة وصوتُ الهديل كأنما طلع النهار وبدأتْ الطبيعة يومها في منتصف الليل.
وسيكون هذا الإنقلاب في دورة الليل والنهارِ رفيقنا منذ ذلك اليوم، ولن تعود للزمنِ الشمسي سيطرة. وسواء أكان الوقتُ ليلا أم نهاراً فللحمامِ رفرفة، وللشجر اخضرار، ولليقظة أن تستمر، ولأمي أن تعيد القصة حيثما شاءتْ، وأمام من يصدق أو لايصدق بأن حمام البيت يعرف أصحابه ولا يعترف بالوقت.
إنهم سادة الوقت الذي غاب لأنهم غابوا، وكذلك كان أمر الندى والأيام والصيافير، فهو ندى فلسطين ورياح فلسطين وصيافيرها وبلاطات الشقّاق.

وأفكّر بهذا الحمام الذي رفرفَ في تلك الليلة مغادراً عادته القديمة لأول مرة منتشياً بالقادمين الذين تركوه للسكون فجأة، وأفكّر بأخي وهو يرد عن كتفيه الحمام، باحثاً عن كيس من الطحين أو جرة زيتون، وأمي وهي تحمل أواني الطبخ والوالد وهو يتخبط في العتمة باحثاً عن شيء يحمله.
وأفكّر ببيتنا وهو يهوي في القاع وأنا أصعد إلى البلدة، بهذه الحركة المهموسة التي ضج بها يحميه بعده عن الشارع المعبد، وانعزاله عن البلدة المرتفعة، وأراقب الحركة اللاهثة والسريعة، فلا وقتَ يمكن تضييعه.. والأرض تنبض تحت حشرجة الضباع والشجر يصيبه السكون حيث تنتشر الغيلان وحيفا تحولتْ إلى فحمة سوداء في السفح، والبحر قاتم.
هذه هي الليلة الثانية من الليالي السبع التي بدأنا نعدها.. الليلة التي التهمتْ فيها الغيلان الطرقَ كلّها، وتقطّعتْ بنا السبل.

وسينحدر الخالُ الذي لاأدري كيف تخلّى عن عناده وصحب عائلته إلى الدالية حاملا بندقيته، إلى مكمنِ الضبع نفسه، وسيتحول إلى كمين متحرك يتنقل من صخرة إلى صخرة ومن شجرة إلى شجرة مطمئناً إلى أن بضع رصاصات في البندقية وحزامين من الذخيرة يتقاطعان على صدره تكفي لإيقاف قطيع من اليهود يتغلغل على هامش الوجود، ويتعلّق بمخالبه بالسناسل الحجرية ويطلّ على نيران القرويين ولا يجرؤ على الاقتراب. إنهم منتشرون الآن في التفاصيل كلّها. ومع ذلك فهو لا يراهم مباشرة، ويظن خالي أن البلدة التي خلتْ منهم بعد ساعات من اجتياحها، وأن الآبار المهجورة إلا من الجثث، وأن أحراج الزيتون التي عاد السكون وأخفاها، هي خير دليل على أنهم لن يعودوا مرة أخرى. لقد ابتلعهم الليل، ولم ينتشروا كما في الحكايات مثل الجراد، ولاجاء الوقتُ الذي تحدث فيه الواقعة الكبرى، حين يصل الدم إلى الركب، وتخوض الخيلُ في الدماء، ويقتص فيه المسلمون من اليهود، فلا مهرب لهم، حين يحاولون الاختباء وراء الحجارة

والشجر، فينادي الحجر.." يامسلم هذا يهودي تعال واقتله"، وتنادي الشجرة.."هذا يهودي تعال يامسلم واقتله". لا.. لم يأت الوقتُ بعد، فهذا يحدث في آخر الزمان، ونحن مازلنا في أوله.

ويدور خالي حول بيت الانكليزي، ويتفحص الطرقَ حوله. لا أحد مستيقظ في حيفا. الهدار وحده يرتفع مثل شبح بألف كوة سوداء، ولكنه يبدو غافلا عن وجود خالي الذي يقترب من السور الخلفي، ويقفز ويفاجيء الانكليزي بقامته المديدة، وأحزمة الرصاص المتقاطعة على صدره.
يقول خالي:
"كنتُ أعرفه منذ زمن طويل.. مستر جلهار هذا. وبعد أن فرك عينيه واستيقظ تماماً، دعاني إلى الدخول، فجلستُ وبندقيتي بين يدي. وسألني:
" ماذا جاء بك في هذا الوقت؟"
قلتُ:
"أريد أن أعرف ما أفعل الآن. احتل اليهود البلد. وها أنا أمامك حائر، لاأعرف ماذا أفعل"
ضحك الانكليزي وقال:
"هل أنتَ مجنون.. تأتي إلى حيفا ، وقد احتلهااليهود!"
"قل ماذا أفعل؟"
تحير الانكليزي، وقال لي بهدوء:
"اسمع طالب. كل شيء انتهى. لقد باعتكم الدول الكبرى. هي أشياء لن تفهمها الآن، ولكن عليك أن تمضي"
ويضيف خالي:
"وخرجتُ إلى الظلام، واتخذتُ طريقي إلى الدالية"

وأقول كأنني أمام تلميذ صغير:
"كان الانكليزي على حق. ولكن الخطأ ليس خطأك أنتَ وأبو درة وبقية الفلاحين. كانت أرضكم تُسرق منكم. وكان غيركم يقايض الانكليز واليهود"
ولم يقلْ شيئاً.. هذا الذي شارف السبعين من عمره بكتفين ممزقين لاعظم فيهما كما تؤكد أمي من غزارة الرصاص الذي انهالَ عليه في أم الدرج. وخجلتُ حين صمتَ ولم يقل شيئاً، فقد كان الرجل مازال هناك، يتنقل شاباً ببندقيته وأحزمة الرصاص. ورأيتُ في نظرته شيئاً لاتحدده أي كلمة أكتبها ولا تستطيع. لقد كنتُ أحاول سلبه ما كان عليه بقسوة متناهية.. أنا الذي صار لي أقرباء من الكلام، وهو الذي كان أقرباؤه الندى والصخور.

X1

ونتقدم من الغول بكلّ شجاعة، فنسلّم، ونحن مطمئنون إلى أن سلامنا سيجرده من كل أسلحته وسيحوله إلى كائنٍ مسالم يدلّنا على الطريق التالي.."لولا سلامك سبق كلامك لسمعتَ طحن عظامك"، ونضحك في سرنا من غفلة الغول، ونواصل إلى أخته، ونسرع هناك إلى ثديها فنرضع منه، وإلى كوزها فنشرب منه. فما أن تصحو من المفاجأة حتى نكون قد عبرنا مرحلة الخطر. ولكن أبناءها يأتون في آخر النهار فتحولنا إلى إبرة تضعها في شعرها، وتنكر أن هناك إنسياً يختبيء في مكان ما بينما يصر أولادها على أن هناك رائحة إنسي في البيت. وبين قلقنا وخوفنا ونحن في حالة الإبرة وبين اطمئناننا إلى أن كل شيء يسير في القصة إلى النهاية السعيدة، نتأرجح للحظات حابسين أنفاسنا.. ثم نأخذ غرضنا وننطلق هاربين.

وفي قصة أخرى تقضي الغولة المتنكرة في زي أخت على جميع القرويين، وتطارد دجاجهم وأغنامهم، وتأكل محاصيلهم حتى تخلو القرية منهم إلا من ديك وحيد تظلّ تطارده وهي غاضبة ثم يأتيها الشاطر الذي لم تجز عليه الخدعة منذ البداية فتكون نهايتها على يديه. وأتخيّله صغيراً في مثل سنّي تحاول الغولة اصطياده حين ينام ولكنه لاينام، وتتحايل عليه بشتى الطرق، فيذكّرها دائماً بأنه يقظ وساهر حتى الصباح. إن الغولة التي حولتنا إلى إبرة تبدو مختلفة عن هذه الأخيرة أو هي من جنس آخر، تأسره كلمة السلام والرضاعة والأكل من أواني طعامه بينما تبدو الأخرى مجرد نهمٍ لايشبع.. يظلّ يأكل ويأكل حتى يقضي على الناس جميعاً، ويقف وحده في الفراغ إلى أن يلقى نهايته المحتومة على يد الذكاء.. هو البليد الذي لايعرف أن مصيره محتّم، وأننا نحن الصغار نراقب المشهد ونعرف أن نهايته قريبة ومؤكّدة.

"لقد طلبت الأوطان أصحابها"
بهذه العبارة نصل إلى نهاية قصة أخرى تكون فيها الغربة هي السيدة المجهولة والعجيبة التي لاتتّخذ شكلَ امرأة أو رجلٍ أو شيء مجسد مما يمكن لمسه، ومع ذلك فإنها تهيمن على مصير هذا الرجل الذي اجترح المعجزات. وما كاد يستريح حتى طلبته الأوطان. وتكرر أمي هذه العبارة في قصص كثيرة وبلهجة يعقبها تنهد لانعرف هل هو تنهد ارتياحٍ من وصول القصة إلى نهايتها، أم تنهد من يدرك أن كلّ شيء يسير في الخيال.. وبعيداً عن غابتنا الحجرية هذه، وعن الصغار والشمس التي نشاهدها كلّ يوم.

كانت الطفولة تتنكر كلّ يوم تقريباً وتمثّلُ شتّى الأدوار على هذا المسرح الذي تقيمه أمي في آخر الليل وترسلنا فيه إلى الطرق الجبلية الوعرة، أو تضعنا أمام مغارات يتدفّأ على أبوابها غولٌ في صورة إنسان أو تتركنا هنيهةً في شكل إبرة في شعر غولة أو عشاقاً يتجولون في البلاد بحثاً عن تلك الأصيلة الفريدة التي يعرفون أنها موجودة.. ولكن المصادفة وحدها هي التي تقودهم إليها. ربما لهذا السبب لم يبقَ من النهارات إلا أقلّها في الذاكرة.

الليلُ وحده هو السيد الذي نألفه أكثر من غيره، حيث نتّخذ طريقنا فيه إلى بلاد غامضة لانسميها ولا نسأل عن أسمائها. ويحدث مرة أن أسأل أين حدث كلّ هذا، فيكون الجواب.."في زمان قديم.. قديم وفي بلاد بعيدة".. هي بالتأكيد تلك التي عاش فيها الكبار وعرفوها وترك فيها كلّ واحد منهم شيئاً.. أما ما تركناه نحن فكان الأخ الأكبر الذي تتحدث عنه أمي، وتقول وهي تمر بيدها على لحاف صوفي بغطاء أحمر.."سيكون له ولعروسه".
ولكن مايشغلني هو .."أين كنتُ آنذاك؟". إن كل شيء حدث، ويحدث بدون أن أكون موجوداً إلا في القليل النادر. إنهم قطعة من المجهول. لاأحد يخاطبني أو يدعوني لاعتلاء خشبة المسرح، وكلّي اعتقاد أن اللحظات التي كنتُ أحبس فيها أنفاسي حين يلقي الرجلُ السلام على الغول أو يتحول إلى إبرة ويختفي عن عيون الغيلان، أنني كنتُ أتسلّل في غفلة من أمي والتحق به. ولو عرفتْ بما كنتُ أفعله لربما منعتني وأوقفتْ قصتها، ولكنها لم تكن تعرف بتلك اللحظات التي كنتُ أتسللُ فيها وأرافق الرجلَ أو الشاب، وأعاني ما يعانيه من مخاطر أو مخاوف حتى أني كنتُ أتلفتُ حولي فتتوقف وتقول.."لاتخافوا.. هذه قصص".
إلا أني وقد وصلتُ إلى ذروة التلّ أو الجبل أو وقفتُ على باب المغارة، أكون قد بدأتُ أشعر بالخوف والرعب فأقترب من أخواتي المتجمعات حولها، وأنا أحس بعمق الظلام والسكون المحيطين ولا أطمئن إلى ثقل اللحظة وملمس اللحاف وقوة الجدران.

إن الجزء الأكبر منّي يظلّ بعيداً حيث المشاهد التي تحكيها القصة، يتحسس طريقه إلى حيث سيكون الاختبار الأكبر، حين أواجه الغول أو الغولة. وأتساءل.."هل سأنجح؟".
إن لدي شكاً في أني أحفظ التعليمات جيداً.."عندما تصل تبادره بالسلام" و "عندما تشاهدها وهي جالسة تطحن القمح، إسرع وارضع من ثديها، ثم اشرب من كوزها، وإلا..".
ياللشاب المسكين! الكثيرون لم يتذكّروا التعليمات وأخذتهم الرهبة وغشيهم الخوفُ، واطمأنوا فحسبوا الغولَ رجلا أو الغولة امرأة، فأخذتهم الغيلان بكل بساطة. وهكذا كنتُ أشاهد عظاماً كثيرة في الطريق إلى المغارة.. وبين المنحدرات، فيزداد حذري من المصائر الغامضة لآلاف الناس. ومع ذلك لا أحد يستطيع إيقافي أو أنني لاأستطيع التوقف، منساقاً هكذا بتيار خفي في الرواية وصوت أمي، والسكون المحيط بنا.. وكأننا نمضي إلى النهاية، فلا أحد يتوقف في منتصف الطريق وإلا هلك.. لاأحد يرفض الامتحان وإلا لم يعد جديراً بأمه وأخواته، والناس الذين ينتظرون أخبار قتل الغيلان أو استغفالهم وأخذ أشيائهم التي احتجزوها وكانت تعود لنا بالتأكيد.

كل الأنظار تتسلط علي في هذا المسرح المقام في الهواء الطلق على الطبيعة تماماً، مسرح تُقطع المسافات فيه بأيام وشهور وسنين، ويغيب فيه الناس عن بلادهم دهراً، ولكنهم يعودون في النهاية.

أخي لم يعد أو لم يصل بعد، وسيظلّ لحافه الصوفي الكبير بغطائه الأحمر وكلمات أمي هو ما يبقى بعد أن يجيء ذات يوم في وسط صف من الرجال يتقدم خطوةً خطوةً، ويتزاحمون عليه وعلى والدي الذي أحاطه بذراعيه وكأنه سيفلت من يديه، وأراقب المشهد من بعيد، بدون أن يلتفت إلي أحد، تماماً كما حدث حين حملته مجموعةٌ من الرجال في تابوت بعد أشهر قليلة من مجيئه وسرتُ بعيداً وراءهم أسأل رفيقاً يسير معي.."أين يذهبون به؟".

لم التقط من مشهد المجيء والذهاب إلاّ وقوفه ساهماً عصر كلّ يوم متطلّعاً إلى الغروبِ، إلى الشمس وهي تغيب وراء الأسلاك البعيدة في برية لاتنتهي.

كان شاباً جاء به سائقٌ يتردد على الأردن وورثتُ عنه دفتراً ساحراً كلماته عجيبة لاأستطيع قراءتها. كانت كلمات انكليزية مكتوبة بخط واضح ومتكررة. أقلّب صفحات الدفتر، فيزعجني هذا التكرار.. ولا أعرف ماذا وراء هذا الدفتر الصغير. وأتذكر أنه أتم الصفّ السابع واشتغل في حيفا وكان يجيئنا عصر كلّ يوم عائداً في الباص الذي لايعرف إلا باسم باص عوض.

وينبعث في ذهني كلبنا السلوقي المبقع باللون البنّي، وهو يهرع لاستقباله. ويقول قريب لنا.."أمسكته يرحمه الله من قميصه وهو يندفع إلى البيت، وأخبرته أنكم رحلتم. ومنذ تلك اللحظة لم أره".

وستقول لي امرأة عجوز بعد ذلك بصوت كالفحيح.."كان ينكمش من البرد.. ولا أحد يعطيه بطانية. وكان يخفي عنا جرحه الذي أصابه في خاصرته إلى أن دخلتُ عليه يوماً فوجدته على هذا الحال.. فغيرتُ له رباط الجرح، وأعطيته بطانية".

إنه يدخل في خيالي صامتاً أمام الشمس الغاربة وجارةٌ تهمس بأنه.."آن أوان زواجه"، فتقول أمي وهي تتطلع إليه في وقوفه ذاك.." مازال صغيراً". أكان هو بطل الأقاصيص التي سمعتها؟ لقد توقفتْ أمي عن رواية قصصها منذ ذلك اليوم، ربما لأن الشاطر قد عاد إلى البلاد وقضى على الغولة اللعينة.. وربما تجاوز مخاطر الوعر بعد أن انعزل طويلا.

كان شاباً هجر الناس وتوحد. ولا أدري ما السبب. وهاهو يعود كما يبدو من تناقص الليل وازدياد النهارات في أيامنا. ويدخل خيالي بدفتر صغير مملوء بكلمات انكليزية لاأفقه لها معنى وإن كنتُ أدرك أنها ذات قيمة كبيرة.. ووراءها سر كبير.

ثمة أشخاص يعرفونه في هذا العالم ذكرت لي أمي اسم واحد أو اثنين منهم. ولكن لاأحد يستطيع رواية القصة كاملة أو لا أحد يمتلك خيالا قادراً على الطيران بين أغصان الغابة المتحجرة. لقد عاد الصمتُ ليفرض علينا سيادته، وكان علي أن أطلق تمثالَ أخي من جموده وأرافقه بدون أن يساعدني أحد.

"إنهم يحلفون بحياته"

وتزيدني هذه العبارة رغبة في معرفة المزيد عن هذا الشخص الذي لم أكن إلا شاهداً عليه في مشهد اكتظ بالناس من كلّ جنس ولون إلا منّي أنا أخوه، وهاهو يحيا أخيراً في أنا الذي لم يعرني أحد اهتماماً.

سأجعله إذن من أبناء الندى، من هؤلاء الذين يزدحم الوجود بهم من حولي، ويغيب هو عنه، راقداً في مكانٍ ما من جنوب العراق، تغطّيه حجارةٌ مطلية بالكلس قد خددها المطر، وتسفّ الرياح من حوله ويتساقط المطر. وتتذكره أمي، ويبتئس الوالد الذي لاأشك أنه بكاه كثيراً في وقت لم نكن نعرف فيه ما الذي حدث. إن لي موعداً معه. هكذا لم أشعر بالموت إلا غياباً مؤقتاً، وأن الأيام المقبلة هي أيام عودة من ماتوا أو غابوا. ويلازمني هذا الإحساس حتى لأستطيع تخيل هذه العودة.. ورؤيتها في الأحلام.

وتقول أمي وهي تمر بيدها عل اللحاف الصوفي بغطائه الأحمر.."سيكون له ولعروسه". ولكن كل هذا لم يكن ولن يكون أبداً، فقد انقطعت القصة عند هذا الحد، وتوقّفت أمي عن إرسالنا إلى الوعر والمغارات والبلاد البعيدة، واحتفظت بنا، بصمتها قريبين تماماً.
لم تعد كلماتها تطلقنا أو تسمح لنا بالرحيل كأنها أصيبتْ بالندم لأن بكرها الوحيد راح ضحية رواية أطلقتها وكلمات حكتها ذات ليلة بدون أن تعرف كيف ستنتهي.

سجناء نحن إذن، ولن نعرف بعد اليوم كيف نخطو في الظلام الموحش الذي ابتلع أخينا الكبير وأخذ معه قلب خمس أخوات وأب وأم.. وصغيرين سيولدان بعد ذلك على حافة الصمت، فيخترعان ما يكفي ليعيش فيهما الأخ الأكبر أيضاً، ويحدثهما ويتعرفان عليه كما لو أنه هاجس السلالة كلّها.

X11

ما زال العمالقة يتجولون في الغابة ونحن نسمع أصواتهم ونراقب مرور أجزاء منهم وهم يعبرون أمام الشقوق. ما زلنا نسمع صرخات الجنادب حين يقعون في أيديهم ويغوص في قلوبنا ألم العجز عن الحركة وانقاذ واحد منّا.

وتقولُ أختي وهي تضرب كفّاً بكف غافلة عن وجودي.."باطلْ.. باطلْ يا أبو محمود"، فأشعر بالعجز مروياً بكلمات قليلة بينما يبزغ ضوء أمامي وينير أبو محمود بوجهه المبتسم ولحيته البيضاء، وأسنانه الدقيقة، لقد تهشّمت الآن، هو الذي لم يكن يسمع له صوت. لم يكن الرجلُ جندياً بل شيخاً كبيراً يبدو أنه وقع في قبضة اليومي والمبتذل، ولن أراه بعد اليوم. ففي عصر ذلك اليوم الذي سمعتُ في مسائه أختي تردد كلماتها برنّة أسفة وهي تعد العشاء، هربتْ امرأة من زوجها ولا أعرف كيف ولماذا فانطلق الرجال خلفها مسرعين بسيارة نقل مكدسين، يتمسكون بحواجزها الخشبية ويتمايلون بينما تلعب الريح بوجوههم، انطلقوا خارج المعسكر على الطرق الترابية التي تقود إلى عالم لم أعرفه بعد.
ويقال أن حواجز الخشب لم تستطع الصمود، فانهارتْ وتمسك الرجالُ بالحافة بينما سقط أبو محمود منكفئاً على وجهه، وخلّفته السيارة وراءها، مهشّم الأسنان، لم ينهض بعدها أبداً.. موتٌ مجاني بلا معنى ، وبطولة تافهة.
وهكذا ولدتْ لفظة الأرملة في المحيط العائلي فأصبح الاسم علماً على امرأة لم أرها إلا لماماً، فحين يقال الأرملة يصبح معروفاً من يعني القائل، ويبدو أنها أول أرملة في تاريخ معسكر الأقزام هذا أو أول أرملة في الكون الجديد الذي ستتكاثر أسماؤه، ويتكاثر أمواته من الآن فصاعداً.

باطلْ.. إذن كانت نوعاً من التفجع، لأن موتاً مثل هذا النوع لايليق بشيخٍ يحترمه الجميع. ولا أدري ما الذي يربطنا بأبو محمود هذا غير أنه جار عزيز كما يبدو، ولكن الأرملة التي أُعطيت هذا الاسم برزتْ إلى الوجود. هذا كلّ ما في الأمر. وسأتذكرها، وأتذكر أبناءها واحداً فواحداً، وهم يسيرون تائهين في الذاكرة، موصوفين بالأدب والطيبة والمسكنة، فهم أولاد الأرملة.
إن لهؤلاء الشيوخ في القصص هيبة خاصة، ولهم حياة وأسف بعد موتهم كأنهم عماد حياة أو سقوف بيوت تتطاير في الريح إن أصابهم شيء، فأحدهم مازال موصوفاً بالمجاهد يرقد في مغارة من مغارات الكرمل. وكلما حاول أحد انتزاع المنديل الأخضر عن وجهه التصق بالوجه من أي جهة جئته، وهكذا لن يعرف أحد من هو وإن كان والدي قد تكهن بأنه أحد المجاهدين الأوائل الذين جاؤا مع الفتح الاسلامي. وأحدهم حين حملوه في التابوت، أبى التابوتُ أن يسير وعجز الرجالُ عن التحرك به.. إن باب الدار نفسه يرد الأعزاء الذاهبين في الحقيقة أحيانا وفي المجاز

في أحيان أخرى، في القصص أحياناً وفي الأغاني في أحيانٍ أخرى، ويتمنى المنشدون أن يردهم باب الدار، ويتعهدون بأن يرضوا الأعزاء الذين كان موتهم مجرد غضبٍ وما كان الأمواتُ إلا مغاضبين قرروا الرحيلَ.. إلى أن جاءت الحاجة برأسها المعمم بأشرطة ملونة، وضربت التابوت بعصاها قائلة.."هيا يامبروك.. امضِ"، فسار التابوت بسهولة، ورضي المبروك أن يغادر وفرح الناس.
ولكن لماذا لم يحرك أحد من هؤلاء الشيوخ ذاكرة صديقنا الجندي التركي أو يوقظه من سباته؟ ولماذا لم يستطع أي منهم أيقاف الطوفان الذي اجتاح القرى، والتهم المحاصيل والبيوت؟

أنهم معنا في غابة الأقزام أقزام مثلنا، يسقطون من حواف السيارات المسرعة، يتجشأون أو يمازح بعضهم بعضاً كما لو كانوا مثل غيرهم.
يقول أحدهم مخاطباً الحاج القطروز:
"سآخذها.. وصكّه بين حجرين!"
ويضحك الحاج كاشفاً عن اسنان دقيقة ولثّة حمراء بينما يقهقه صاحب الاقتراح بوجهه الشبيه بوجه دجاجة، وتنكمش العجوز في جلستها، وتواري وجهها خجلاً.
إنهم يمرحون بعيداً عن الصمت والعبوس المعتاد آخذين جزءاً من رواية لايدرون عنها شيئاً.. ولن يدروا، فالحاج القطروز وصحبه بلا آنٍ الآن. إنهم موجودون أبديون لايتحركون خارج تلك الليلة، وأبعد منها قليلاً. يهزون رؤوسهم أو يضحكون أو يسبحون أو يتنبأون.
ويضاف إلى الموتى ميتٌ جديد، ولكنه يتّخذ اسماً هذه المرة. إنه أبو محمود الذي يختفي مخلّفاً الأرملة والأولاد وعبارة.."باطلْ.. باطلْ يا أبو محمود".

كل شيء باطلٌ وقبض الريح. وستخرج أختي المتزوجة حديثاً من بيت زوجها القريب منّا، وهي تصرخ وتخلع عن رأسها المنديل، فأحس بأن حدثاً وقع ويتعلّق بي تحديداً، وتخرجني هذه الصرخة والركض من تجمع العصافير والفخ الذي نصبته هناك حيث تجتمع مرة واحدة وإلى الأبد، وتركتُ العصافير والفخ، وأخذتُ طريقي إلى البيت وراء أختي وهي تصرخ.. وخلفي النهار الشاسع كله.
فقبل أيام كنتُ أراقب أخي الذي اشتعل جسده فجأة ولم يعد يطيق الجلوس بدون أن تفتح النوافذ والأبواب وتّرشّ أرض الصالة بالماء، ثم راقبته وهو يصعد إلى سيارة جيب ببيجامته المخطّطة، نحيلا، يجلس إلى جانب السائق بينما يهمس أحد الواقفين متذمراً لأنه احتلّ مكانه كما يبدو. وتذهب السيارة ويعود أخي بصرخة أختي هذه المرة، ووقفتُ أمامه في الصالة وهو ممدد عاري الصدرِ، مغمض العينين، أحدق في صدره الذي شُقّ بسكين، وخيط جرحه الطويل على عجل بخيط غليظ. كان ميتّاً كما فهمتُ فيما بعد.. أما في تلك اللحظة فقد كان شبه نائم، قاتم اللون، ينظر إلي من تحت أجفانه صامتاً صمتاً عجيباً.
وقالت امرأة عنّي.." خذيه.. خذيه.. بعيداً"
وأخذتني امرأةٌ خارج الصالة إلى حيث لاأدري، وفي أنفي رائحة عطرية نفاذة، وسأظلّ أتذكر معها أخي مممدداً وإلى جانبه على الأرض أمي تحيط بها نساء يحاولن تهدئتها وهي تهذي وتلوح بيديها، وتخطّ على الأرض خطوطاً وهمية، وتعيد الكرة مرة بعد أخرى.

وأحاطني أبي بذراعيه، ونحن نسير خلف رجال يحملون التابوت. وكان صوته باكياً وهو يهمس في أذني.."هذا أخوك.. هذا أخوك"، ثم يأخذه رجلٌ ويلتحق بهم. لم يكن بحاجة ليقول هذا، فقد كنتُ أدرك كلّ شيء، وأشم الحدث في الهواء نفسه.
أبي نفسه الذي كان يتشبث به وهو قادم يحيط به صفٌ من الرجال المتزاحمين هو الذي كان يبكي. وتقول أمي.."طلب المرحوم منّا أن نذهب إلى قبرص. وقال له الانكليزي هناك ستعيشون، ولكن الحاج رفض".
ياللحسرة الدائمة التي امتدتْ منها إلينا، فوجدنا أنفسنا نعرفه ونتحسس وجوده رغم أن اسمه لم يعد يذكر إلا تورية. فهو المسعد حيناً، وهو حياة المرحوم حيناً آخر، وهو الرجل الحقيقي الذي يحلفون بحياته، وهو الخصب والنمو الذي أخذه موت وتغيرت بعده الأشياء، فنشأنا في السنين الممحلة وما زلنا فيها.

سيضاف إلينا أمواتٌ كثيرون، وسيبقى هو الحي وحده الذي أراه كثيراً عائداً ذات يوم. وأشعر بنفس الفرحة التي شعرتُ بها حين جاء، فقد أصبحتُ فجأة محاطاً باهتمام الصغار من حولي، فأخي هو الذي عاد، ويتجمع الآن الرجالُ والنساء في البيت وأنا أرتفع في الهواء متأرجحاً يدفع الصغار مجتمعين أرجوحتي عالياً عالياً.

"باطلْ.. باطلْ".. لم أفهم هذه الكلمات، ولكنني شعرتُ بالأسف الذي قيلتْ به وبامتدادها الطويل، وكأنها الصدى، وشاهدتُ ذلك الطقس الذي ظلّ حياً.. نساء من أعمار مختلفة، أوصحهن القامات الشابة، يدرن في حلقة حول حفرة في الأرض، ويرتفع عويلهن مع ارتفاع الأيدي بالمناديل والحطّات.. أنا الذي سمتني امرأة بالأسيل ربما كنتُ الوحيد في هذا الكون الذي انطبع في روحه هذا البكاء إلى الأبد. وعرفتُ فيما بعد أنهن كن يبكين فلسطين أو أخي أو كلّ الأموات الغامضين الذين أكلتهم الغيلان في دروب العودة إلى البيت، وكلّ الذين أُصيبوا بالجنون شباباً وشيوخاً، وكلّ القرى التي ضربها الجفافُ والعقم.

أخذتُ هذا البكاء إلي كما أخذتُ هؤلاء الذين كانوا يتحركون ويتحدثون ويضحكون ويبكون ويصرخون ويضربون كما لو كانوا يجهلون وجودي تماماً، فأخترع هذه المدينة كي ألقاهم بها مجدداً.. ممرات وغرف بسقوف واطئة مسودة من أثر الدخان ينفذ إلي فيها الصغيرالذي كنته فأحس بأنفاسه وأنا أكتب، وأشعر به يمزق ورقة أو يكسرمحبرةً أو يتوقف أمامي ناظراً بأسى إلى ما أصبحتُ عليه، ويكون علي أن أتحرك وأخرج إلى هذه المدينة وأطرقُ باباً فيفتح لي وجه أتعرف فيه على طفلٍ هو أنا، وأنظر حولي مندهشاً حين ينسحب الطفل إلى الداخل صائحاً.."لاأحد بالباب.. إنها الريح فقط". وأقولُ لنفسي.."أحقاً هي الريح؟"، وأهرع وراء الطفل إلى غرفة العائلة، فأجد كلّ شيء في مكانه كما كان. حتى مكاني الذي يشغله الآن طفلٌ لا يراني، مسبلَ العينين كما كنتُ دائماً، وكما أحببتُ أن أكون، أنا الوحيد الذي عرف أن شخصاً دخل من البابِ، ولكنني أخفيتُ سره عن الجميع.
لقد أخذتهم إلي وبدأتُ أطلقهم واحداً واحداً، هم الذين لم يعرفوني أبداً، علي أن ألتقطهم وأرسم كلا منهم بكلمة أو كلمتين تاركاً جزءاً كبيراً من غموضهم يحيط بالقاريء كما هو محيط بي. ولا أعرف حتى الآن سبب هذه المغامرة.. أن أعتني بكلّ هؤلاء وأكتشفهم خارج حبات الجوز التي اختبأوا فيها، أم أنهم لم يكونوا كذلك وأنني اخترعتُ لهم هذه الغابة وحكاية العمالقة ليكونوا واضحين تماماً؟

سيفتقدك الأخوةُ والوحوشُ والغزلان في الوعر، والمياه، وكلبنا السلوقي وظلالُ المغيب التي خلّفتها وراءك وأنتَ تعود إلى أم الزينات ليلا لتصيبك الرصاصاتُ اليهودية، وسيفتقدك مجهولون عرفتهم ودفترك المليء بالكلمات الانكليزية المكررة، والقلة الذين عرفوك لأيامٍ قليلة قبل أن تنزلق من بين أيديهم.. وسيقود هذا الصغير الذي لم تعرفه إخوته إليك واحداً واحداً ليعرفك بهم وأنتَ في سكونك الطويل، ممدداً على أرضية الغرفة، قاتماً، نقفُ عند قدميك في اللحظة التي تضع فيها أمي بعصبية بين كفّيك المتعانقتين إضمامة من الريحان، هم الذين لم يذكروا اسمك أمامهم إلا بعبارة.."حياة المرحوم"، فأدركوا أن ثمة فراغاً مقصوداً في الكلمات والنظرات ومسرات العائلة، فراغاً يترك دائماً لينبيء بأن الوجود لم يكتمل بعد، ولن يكتمل بعد اليوم إلا بعودتك.

هاهو الصغير الذي عبث بدفترك وأسرارك ولم يدرك منها شيئاً، يحيطك بدوره بالصمت يخفيك ليراك قادماً في مقبل الأيام، وهاهي الأخت المولودة ذات صباح شتوي، تلك التي ستبدأ الهذيان حين تبلغ السن الذي كنتَ فيه، وتتصور كلّ كلمة حنانٍ تقال لها، كأنما تسمعها منك، فتراك حاضراً إلى جانبها في كلّ الوجوه، وهاهو سميك الذي اختاروا له اسمك لأيام قليلة، فإذا هو يبكي، ويواصل البكاء، ولا يتوقف إلا حين اعطوه اسماً آخر، واطلقوا سراحه من هذا الفراغ المقصود، ليقع فيما بعد في فراغ من نوع آخر.
هؤلاء الجدد المولودون في غيابك او بعد موتك لم تعرفهم، ولكن كلّ ما فيهم يتنفس حسرتك الدائمة، كأنك الميتُ الأول والأخير في الكون، يرونك في حجم الفراغ الكبير الذي يثقب الكلمات والنظرات والحياة ويرافق أيامهم.
باطلٌ.. كلّ شيء باطلٌ.. وقبض ريح.. ولن يقول أحد باطلٌ.. باطلٌ ياأخي، فالتفجع وحده لا يصيبنا إلا على الذين لانعرفهم. أما الذين نعرفهم فهم يصيبوننا بالصمت والندى.

X111

ذلك الصباح.. الصباح نفسه.. بعتمته ونداه حين لم أكن مولوداً بعد، ولا كان بيتنا في خضرة الوادي قد برز بعد.. في ذلك الصباح كان لجدي أربعة أبناء، أصغرهم في العاشرة من عمره، وهو من سيكون أبي بعد ذلك، ولكن بعد أن جرده ذلك الصباح هو وإخوته من كلّ معنى، فحين برزت الشمس وألقتْ الصيافير العالية ظلالها باتجاه الغرب، وظلّلَ الكرملُ جزءاً من حيفا الراقدة بين أقدامه، كان جدي لايزال متكئاً على مسنده في غرفة الضيوف، مسبلَ العينين، وقد مالَ رأسه جانباً، وأمامه قدح قهوته الصباحية وعلبة تبغه النحاسية.. وكان حصانه مسرجاً ينتظر يبلّلُ ناصيته الندى.

وحين استبطأته جدتي دخلتْ لتفاجأ به ميتاً من النظرة الأولى.. وميتاً هذه تعني الأبد الذي سيكون شاسعاً بحيث لا تستطيع احتواءه صرخة الجدة الحادة. ولأنها لم تكن متأكدة من هذا الفراغ الهائل الذي هبط فجأة فقد هزته.. وهزته لعله يستيقظ.

لم يحدثني أبي عن أمه بل عن يتمه.. ابن الأثني عشر ربيعاً الذي فقد دفعة واحدة شيئاً لم يستطع استعادته حتى آخر عمره.. وسيروى عنه أن أول شيء فقده كان الأرض.. الأرض الواسعة التي ضمها عمه إلى أملاكه وأعطى الأولاد ثمنها.. فبذروه. ويخيل إلي أنه فقد شيئاً أكثر أهميةً لايمكن التكهن به.. شيئاً ضاع في ذلك الاتساع الهائل الذي انفتح فجأة.. فكان صباح.. وكان مساء.. وظهر الوجود خالياً من الأب والبيت. ولم أكن موجوداً بعد، ولا كان وجودي ضرورياً إلى جانب هذا الصمت الذي تميز به والدي وهذه اليوميات الباهتة التي تنقّلتْ بين قرى الكرمل طوال أكثر من ثلاثين عاماً.

وأراه يحلم الآن.. ذلك الذي لا أستطيع تخيله طفلا يحلم كثيراً، وأفرض عليه طبيعة الحلم الذي يسترجع فيه تلك النزوات التي كانت تقوده إلى حيفا منحدراً، وهو يحاول جاهداً نسيانها، كأنها من أحداث ما قبل التاريخ من عصرٍ حجري لم يكن فيه الناس بقادرين على تبادل الحديث أو احتساب دورات الفلك.

عائلة من الصمت تتشابه في حديثها عن الصيافير والزيتون والسريس وكأنها هذه الأشياء نفسها.. أشياء تمثل في الذهن.. في أقصاه. تعرف أنّي ولدتُ في زمن الحصاد. وكان الوقتُ صيفاً، وتعرف أن الانكليز لم يتركوا في البيت لازيتاً ولا قمحاً إلا وخلطوه بالشيد وطاردوا الدجاج ومعسوا رؤوسه بالشيد، وتعرف أن الثوار كانوا يخطئون، وأن الخيانة كانتْ منتشرة مثل الرائحة. ومع ذلك فيجب ان تتواصل الرواية كما يتواصل الحلم، ونشقّ طريقاً إلى الدالية أو عين حوض

فجنين. وتنتظرنا شاحناتُ الجيش العراقي. وهذا النواح الطويل حول قبرٍ شقّته النسوة وتراقصن حوله كالأشباح في معسكر بعيد في أقصى جنوب العراق.

يجب أن تتجمع كلّ هذه الحسرات المجهولة، فلا بد أن يكون لكل هذا معنى.. لهذا الدفتر الصغير الذي يحتشد بالكلمات الانكليزية، ولهذا الجندي التركي الذي أراه بين الناس يراهم ولا يراهم، لهذا الشيخ الذي اختفى ذكره، وهذه الأرملة التي جمعتْ حولها أولادها الأربعة، لهذه المس دوروثي غرود التي بدأت تعاني آلام المخاض في برايتون، لهذه المغارات الغامضة التي ينحدر إليها ماء المطر ويبلّلُ ترابها الأحمر وما يزال في غيابنا.. وحتى الأبد.

لابد أن يكون لكل هذه الألغاز معنى. ألغاز ألقاها أبو الهول بالأمس، ويلقيها اليوم، وسيلقيها غداً.. ونحن نحمله في عروقنا جائلين في غابة العمالقة أو مختبئين نتجنب الطرقات العامة.

لم يحدثني أبي عن أمه، بل عن يتمه حتى من رواية واسعة عريضة تصطخب كما أتخيل رواية الماضي، لقد لعب دور المعلّق والمصحح أحياناً على النص الأصلي، وإن كان قد ضحك حين ذكّرته أمي بهربه حين كانا عائدين على مقربة من البيت في الليلة التي استيقظ فيها الحمام، وفاجأتهما أصواتٌ عبرية تتحدث. تقول أمي.." ارتمينا وراء السنسلة حتى مروا وما أن وقفتُ وتلفتُ حولي لم أجد الحاج إلى جانبي". كأن ما حدث ليس إلا لعبة من ألعاب الأطفال.. ولم يعد الأمر يعنيه.

يقول تاريخنا العائلي إن إطعام خمس بنات وولدين احتاج من أبينا أن يتحول إلى بائع متجول، يبيع البيض والزيتَ والنفط متنقلا على حماره بين القرى والقبانيات. كان يتاجر مع اليهود، منعزلا في ذلك البيت النائم في خضرة الوادي، حتى إذا احتجتَ إلى أن تأتيه من البلاد أتيته منحدراً. وفي المناسبات القليلة كان الأمر يحتاج إلى رحلة لمعرفة أخبار العالم.. رحلة إلى العالم الفوقي.. عالم أم الزينات. وكأننا من سكان العالم السفلي. وقد تأكدتُ من شبحية هذا الوجود حين كنتُ أتصفّح مجلداً ضخماً عن الفلسطينيين قبل تهجيرهم وبعده. فما وجدتُ ذكراً لأبي وأمي ولا لأي من الذين تعيهم ذاكرة أمي، ولم أفهم لماذا هذه العزلة في قلب الوحشة حتى اكتشفتُ تلك الصراعات العائلية التي جردتْ أبي من الأرض والمعنى. وأبقتْ له هذه القطعة الصغيرة، أو الجزيرة الصغيرة بعد أن فقد العالم الفوقي كلّ معنى. كان المجلّد الضخم يذكرنا ضمناً حين يقول.." الفلاحون الفلسطينيون". أما في الصور التذكارية التي أخرجها صاحبه من محفوظاته فما كان هناك أبي ولا خالي ولا أخي.. ولا الحاج القطروز ولا الأرملة، ولا الشيخ حمزة. وهذا هو الأهم.

هكذا تعلّمنا أن نتهامس بأخبار العالم، ونتصل به عن طريق الأم التي لاتترك فرصة إلا وتمتدح أخوالنا الأشد حناناً من الأعمام، فتتحدث عن أخيها طالب الذي تسميه دائماً أبو علي بلهجة تشي بأن أبو علي هذه تعني الرجل الحق أو المثل الذي يعصم الذاكرة من التهاوي. ولكنها لم تكن تعني علاقته بالسلاح، هو الذي لايحضر في الذاكرة إلا مسلّحاً وغائباً عن البيت، يأتي الانكليز، فلا يجدونه ويسألون عنه، فلا يحظون بجواب، بل كانت تعني علاقته بها، وحنّوه الدائب عليها وعلى أولادها.. إنها اخت أبو علي.. وكثيراً ما كانت تُمتدح لهذا السبب.

وأقول لهذا الخال وأنا أحاوره كما لو كان تلميذاً صغيراً:
"لم تكونوا تعرفون شيئاً عما يحدث. أما الآن فالأمور أوضح. ما الذي حدث عندكم في العام 1967؟"
ويتحدث، هو الذي فوجئتُ بحجمه الناحل بعد أن ظلّ لسنوات طويلة يقيم في ذاكرتي طويلا فارعاً، وأتابعه وهو يجلس في مخيم عين شمس، والآلياتُ الاسرائيلية تمر من أمامه. ليس لديه ما يهرب إليه أو منه. وحين استدعاه الحاكم العسكري، تهامس الناس.. " وأخبراً كشف عن نفسه. إنه جاسوسهم":
".. واتخذتُ طريقي إلى المكتب، ودخلت.. قال الضابط الكبير.."نحن نعرفك جيداً.. ولكن دعنا من الماضي. لديك أرض في أم الزينات ونريد أن ندفع لك ثمنها" قلتُ له.."لا.. لن أبيع.. أنتم تحتلون الأرض.. حسناً.. ولكنني لاأبيع" كان عدد من الضباط يحيط به وهم يلحون ويزيدون في الحاحهم.."ماذا تستفيد من الأرض؟ أليس من الأفضل أن تأخذ الثمن؟" لا.. قلتُ..لا. وخرجت".
كان واهناً وهو يتحدث بأناة. وأتخيل مشهده في حضرة الضباط الذين يريدون شراء أرض احتلوها منذ ثلاثين سنة، ومنه هو الذي لاسلطة له على الأرض، ولا على الفصول.. هذا الإله المتقاعد الذي لايرغب في شيء الآن قدر رغبته في أن يجلس بهدوء على جانب الطريق يراقب الآليات الاسرائيلية وهي تمر صاعدة فيتموج الناس أمامها ويفرون إلى أشجار الزيتون، وتدور وتدور لتعود من نفس الطريق مخلّفةً الغبار.. والغبار وحده.

ويبدأ أخي دفتره الصغير بكلماته الانكليزية في وقت لم أكن مولوداً فيه بعد:
"اليوم أخذوا أبي إلى حيفا بسبب بندقية عمي، قلبوا بيتنا قلباً، لم يتركوا خابية إلا ونبشوا فيها. أما جرار الزيت فقد قلبوها، والطحين بعثروه. تقول أمي إنهم شاهدوا عمك يلقي بها بين السريس ولكنهم لم يتأكدوا من ملامحه، فأخذوهما معاً. لم يكن في البيت غير الصغار برعاية أختك.. وحين عدتُ من البلد هلعةً بعد انتهاء الطوق، وجدتُ الصغار مختبئين في المغارة.. المغارة التي حفرناها لتكون ملجأ لنا.."

مازال أبي يتحدث بالصمت عن يتمه وعزلته، فلم يحدث أن عيره أحد كما عيرته أمي بمتاجرته مع اليهود، بنزواته في حيفا، ومع ذلك فإن مشهده وراء القضبان يبعث الرأفة والحنان في صوتها. فبعد أن حطّم صوصة ضلعين في صدره بعقب البندقية، أخذوهما إلى سجن عكا، وإلى هذا السجن كان يذهب القرويون لمشاهدة آبائهم وأبنائهم، وتحت أسواره العالية كانوا يتجمعون حين ينصب الانكليز المشانق لمن وجدوا بضع رصاصات في جيبه. ياالله كم من أسماء ووجوه مرت قبل أن أكون موجوداً.. واختفتْ وذابتْ كما لو أنها لم توجد قط في خضرة ذلك الوادي الذي تكاثف شجره الآن حتى ما عاد الإنسان يستطيع النفاذ خلاله.

إن ابناء هذا الإله المتقاعد ينتشرون، حتى ليصعب على ذاكرة أمي أن تعدهم وتعد أحفاده. وحين يجلس بهدوء وهو يرقب الآليات الاسرائيلية قادمة، وحيداً في مخيم خلا من سكانه.. أتخيله كثيفاً كهذا الشجر من الصعب اختراقه.

X1V

حين أقلّب المجلّد الضخم أو أقرأ مذكرات الرجال المشهورين، أكتشفُ شيئاً عجيباً، وهو أنهم يتحدثون عن أشياء كثيرة، ليس من بينها هؤلاء الناس الذين عرفتهم، والذين أستطيع تخيلهم محتشدين في هذه الأرض الصغيرة. وهل كان غيرهم هناك؟ الكثيرون سقطوا وضاعوا من التواريخ الرسمية، بل أن بلاداً بأكملها يمكن أن تضمحلّ وتسقط إذا لم نجدها على مقاعد الدرس، وحتى إن وجدناها فإن معناها ضائع مثلها بلا مدلول ولا دليل. فبعض رجال القطروز يتذكّر يوماً مشهوداً في حيفا حين مر فيصل واشتبك الناس.. ويثيرني أنا الندى أكثر ما يثيرني اولئك الذين لاأسماء لهم، اولئك الذين أصادفهم في الكتبِ أحياناً وقد إحتملتهم الجيوشُ جنوداً بالآلاف.. وكأنهم لم يكونوا بشراً من لحم ودم ورغبات وأحلام وبيوت وأراض، من يعرف الآن وفي هذه اللحظة تلك الوجوه المجهولة التي تموت في أراض بعيدة، في عمق الغابات أو بين الأودية أو تصارع الأمواج؟ إنهم جنود بالآلاف يتحولون إلى أرقام وقصص يتذكّرها الابن.. ثم ينقلها إلى الحفيد.. فيتركها هذا بين ألعابه ورفاقه في طريق طفولته ولا يعود إليها أبداً.
أهم العشب نفسه، هذا الذي نقتلعه فيجفّ في الشمس ولا يعود له أثر، أولئك الفلاحون من قرية الدوايمة الذين استيقظوا تحت سمائهم على أصوات رصاص وقنابل اليهود القادمين من غيتوات أوروبا الكالحة فلجأوا إلى المغارة بأطفالهم ونسائهم، فأغلق البولونيون والتشيك والروس والبلغار والألمان عليهم باب المغارة، واضرموا النار في مدخلها، ليختنق الجميع بالدخان؟

أهم الغبار، اولئك الذين اقتادهم جيشُ نابليون على شاطيء يافا بعد أن جوعهم طوال يومين أمام خيمة القائد، فأوقفهم وظهورهم إلى البحر، وحصدهم بالرصاص والحرابِ، ومن ألقى بنفسه في الماء لاحقته الزوارق وصبغت بدمه المياه؟ كانوا آلافاً، ذكرهم الجندي بيروس في رسالة إلى أمه وأضاف.."وجدنا بين الضحايا أطفالا كثيرين تشبثوا وهم يموتون بآبائهم..".

من هم اولئك الأسرى الذين حشدهم الصليبيون فوق أسوار عكا وبدأوا بقطع رؤوسهم واحداً بعد الآخر، وألقوا بجثثهم في الحفرة الدامية؟

إن ذاكرتنا غير محتشدة بما فيه الكفاية لكي نكتب الرواية، رواية البكاء الفلسطيني المتواصل منذ أن قامت القرى، وعرف القمح والزيتون والجرار، وشُقتْ قنوات الماء في جوف الجبال، وانحدر أجدادنا من المغاور وانتشروا في السهول لبناء بيوتهم ومراقبة الزيتون وهو ينتشر ويصعد مفتّتاً الصخور.

إن ذاكرتنا غير محتشدة بما فيه الكفاية، بعد أن اخترقتها التوراة القادمة من الصحراء، لتقيم في ذاكرة فلسطين مع انتشار الطائفة اليهودية، وصعودها وهبوطها مع الغزاة.. فرس.. يونان.. رومان.. صليبيون.. واخيراً أبناء الشيطان هؤلاء الذين خلعوا أسماءهم البولونية والألمانية واستعاروا أسماءنا، وارتدوا ثيابنا، وتغلغلوا في لحم أرضنا، مدعين نسباً عجيباً وذاكرة أكثر عجباً.

إن دوروثي غرود يصيبها المخاض وراء البحر، كما يصيب المخاض كلّ من مسته يد الشيخ حمزة، وتعلو وجهها صفرةٌ ذاهلة وهي ترقد في الريف البريطاني محاطة بأغنياتها وأشباحها، وخيال الكهوف ذات التراب الأحمر التي تصبب فيها عرقها، محاطةً بتلك الهياكل العظمية الخاوية المحاجر والملتصقة بالترابِ بعد أن عادتْ جزءاً منه، وتلك القطع الذهبية المغبرة التي وجدتها في جرار مدفونة إلى جوار الموتى.
وحين يضمحلّ كلّ هذا، يظلّ فوقها وجه الشيخ حمزة بلحيته البيضاء، وجسده الشبيه بجسد الثور وبريق عينيه وهو يطلق في أعماقها نفحة الحياة.. هي الذابلة التي ازدهرتْ ورَبتْ للحظات في إحدى مغارات الكرمل.

لقد جاءها المخاض أخيراً، وتساقطَ عليها مثل الندى ذلك الحلم القديم بأن تتغلغل في التاريخ وتكون جارية من جواريه. كان الشيخ حمزة يقول لها بلغة انكليزية سليمة وهو منكب فوقها.."أيتها الانكليزية الحمقاء.. ألم تدركي بعد أنني من هؤلاء الذين تعبثين بعظامهم؟".. فتتمتم واللذة تخترقها والرعب يجمع أنفاسها.."بلى..بلى".

كان ذلك في أحد أيام العام 1938، والجو شتاء، والنسماتُ الباردة تتطاير عند مدخل المغارة الدافئة بالأحياء فيها، وقبل ذلك بأيام كانت مواطنتها المس فرنسيس نيوتن تأخذ طريقها صاعدة في الجبل إلى قرية إجزم لتشاهد حطام ثلاثة أيام من البربرية الانكليزية، حين اقتحم جنود وضباط ملكها البريطاني إجزم فنسفوا البيوت وسرقوا المواشي وأطلقوا الرصاص على كل من وجدوه خارج بيته. كانت السرقة والنهب مخططاً ملكياً لتقويض مقاومة الفلاحين والانتقام لأعصاب كبار جنرالاتهم التي حطّمتها بنادق عثمانية عتيقة بأيدي الفلاحين الفلسطينيين.
قالت نيوتن.."كان محمد الشنبور جالساً أمام بيته في الصباح الباكر مع زوجته، ففتشه الجنود ووجدوا في زناره 25 جنيهاً فطلبوها منه، فرفض.. فاقتادوه بعيدا عن بيته، وراء السناسل الحجرية وأطلقوا عليه الرصاص، وطعن جندي رأسه بحربته.. بحيث لم يستطع المختار التعرف عليه.. وجمع القرويون مخّه المتناثر في سلّة".

دوروثي غرود لم تعد تتذكر إلا تلك اللحظة التي وصلت فيها إلى قناعة كاملة بأن يهودها الذين جاءت تبحث عنهم في مغارات الكرمل لم يكن لهم وجود، ولم يمروا بهذه الأرض، وأنها كانت تفتش في المكان الخطأ.. تماما كما ستكتشف بعد ذلك بأربعين سنة عالمة آثار تدعى كاثلين كينون أن الحجر الفلسطيني لايخفي تحته غير الحجر الفلسطيني، وكلما تزايد عمقُ الحفريات تزايد ظهور الفلسطيني يرافقه ذلك الصوت الصامت الذي تطلقه التوابيتُ والنواويس الكنعانية وصولا إلى الغلاف الصخري.. وربما إلى لب الأرض، حيث يغلي كلّ شيء، ويكاد يندلع الجحيم.

هذه العقود.. وهذه النقود الذهبية التي يسميها الفلاحون المتليك، وهذ الأواني والجماجم ليست مما ذكره أحد. وتفكّر دوروثي غرود.. إنها فلسطين المجهولة.. ولكن الحقيقية.. هذه التي تزدهر نقوشها وأساطيرها على صدور وقامات الفلاحات الفلسطينيات حتى اليوم. إنها لاتمتّ بصلة لتلك التي ولدتْ في ذاكرتها نتيجة أخطاء في ترجمة التوراة، وهاهو الإله/الثور يؤكد يقينها بعينيه الغامضتين، وهو يضحك مختطفاً جسدها من الأسطورة التي نشأت عليها، معفّراً جسدها بالتراب الحقيقي المائل للاحمرار، ثم يرميها بعيداً وهو يستديربعد أن جمع حوله أطراف دمايته وانطلقَ صاعداً مثل شاب في العشرين تتدحرج الصخور وراء أقدامه.. وتظلّ تصغي إلى وقع خطاه على الصخر، وتتذكر الاله بعل المقرون الحواجب وهو يصعد إلى الأعلى حيث يقيم.

أما نيوتن فقد ذهبت إلى حيث يبيع الجيش البريطاني منهوباته من المواشي من أهل إجزم وقرى الكرمل، واشترت ماعز محمد الشنبور حتى يظلّ لأطفاله على الأقل شيء من الحليب.
يالهذه البذرة المنسية التي سقطتْ وتصلّبتْ في التاريخ.. التاريخ الذي لايعني شيئاً حين لايتذكر الدم.. وبكاء الأطفال المتشبثين بآبائهم وهم يذبحون على شاطيء يافا، أو وهم يفاجأون بهم محمولين على الأكتاف مضرجين بالدم وزرقة وبلاهة الموت.
ستعود نيوتن إلى الحياة مجدداً حين يتذكرها الحاج القطروز وصاحبه ذو العنق الدجاجي في ذلك النهار الخاوي إلا من النحيب الصامت، ويعلّق أحد الجالسين.."كان فيهم أناس..بشر.. أما حكومتهم فكانت حكومة أبالسة".

لقد فاجأ المخاض دوروثي غرود إذن، واكتملتْ الدائرة التي قادتها من الريف البريطاني إلى مغارات الكرمل، وأعادتها مرة أخرى بحقائبها ونظاراتها الطبية وأوراقها التي لن نراها إلى ريف برايتون، ولكن هذه المرة مع حلم حياة أو حياة حلم سيضمحل بدوره، وبدل أن تنشغل بهذا الحدث غرقتْ في ندى تلك البلاد البعيدة الآن عن جسدها وعن توراتها.
وكبر الطفلُ في خيالها، واتخذ له اسماً، وتعلّم لغته الانكليزية السليمة.. لغة الملكة ربما، ولكنه لن يعرف أبداً أن أباه هو مجرد ثور مقدس من الشرق، كانت أمه لحظةً في ذاكرته الشاسعة.

XV

لو كان لي أن أكتب هذه الرواية قبل سنوات، لاستطعت استقصاء الطرق بصورة أفضل، ولربما حفظتُ أسماء تغيب عن ذهني الآن، وأماكن لاأجدها واضحة حتى في الرواية الأصلية نفسها. فما يقال الآن، يقال باختصارٍ شديد، فوادي عارة لاتُذكر تفاصيله عادةً، وإن كان القرويون من مختلف قرى حيفا قد مروا به. أما هذه الدالية التي تتكرر في الرواية فقد ارتبطتْ بذهني بأناسٍ غامضين تسميهم أمي الدروز، وتتهمهم بالتواطؤ مع اليهود، رغم أن بعضهم كان صديقاً لخالي المسلّح دائماً، إلا أن نياتهم غامضة، ولا أدري كيف يمكن أن تكون وضعيتهم في الرواية فهم لايحضرون إلا عرضاً وكأن الرواية أسقطتهم بعد أن سقطوا من هذا الحدث التاريخي فما عادوا فيه إلا مجرد متفرجين.

سيتّخذ المتفرجون من الآن فصاعداً دوراً في رواية الفلاّح الذي انتزع من عالمه تماماً، فكلّ ما يراه ويمر به غريب تماماً.. وما عليه إلا أن يحافظ على معارفه السابقة، ويستدلّ بها على نتوءات هذه الجغرافية الجديدة التي أُلقي فيها، بدءاً من وادي عارة وصولاً إلى جنين وانتهاء بتداول حكايات الغير، الحكايات التي تقص أخبار الجيوش العربية، والحكايات التي تقص اخبار القرى التي سقطتْ.. ومصائر أهلها.

سيكون لكل هذا وقتٌ يجتمع فيه الحاج القطروز من إجزم وذلك الرجل الذي اكتسب وجهه في ذهني ملامح دجاجة من عين حوض، وتلك المرأة المسترجلة من أم الزينات، وسيحاول كل منهم وصلَ حكايته بحكاية غيره، ووصل زمنه بزمن غيره.

وعلى هامش هؤلاء، يوجد آخرون، يذكرون أو يعدلون في مسارِ الرواية. ولن يكتمل النسيج، فثمة العديد من الغائبين الذين لاتُذكر إلا أسماؤهم بصيغة حياة المرحوم أو فلان رحمة الله عليه، هؤلاء الذين أحدثَ غيابهم ثغرات في النسيج. ومع ذلك فهذه الجماعة تحاول الوصول بالحكاية إلى اكتمالٍ من نوع ما، لتفسر غموض الجغرافية والأيام من حولها، ولتهدينا نحن الآن ألغازاً فوق ألغاز.

بعضهم لايعتقد أن في الأمر لغزاً، فالجيوش العربية لو كانت تملك أمرها لما وصل بنا الحالُ إلى ما وصلَ إليه. وتشهد أمي أن جنوداً وضباطاً من الجيش الأردني، حين استنجد بهم سكان قرية، خلعوا ملابسهم العسكرية، وذهبوا للدفاع عن القرية. ويشهد خليل أن الجيش العراقي في جنين أذاق اليهود الويل، وأوقع قائده عمر الرعب في قلوبهم حين جاء بالأسرى، وأوهمهم أنه يطعمهم من لحم بعضهم، فذهبوا يحدثون عن وحشية هذا الجيش. والقصد هو بثّ الذعر في قلوب اليهود.

وما كانتْ حكاية ذبح الأسرى وطبخهم إلا مسرحية أصبح بعدها اليهود يتمنون جهنم ولا مواجهة الجيش العراقي.
ويشيد عدد من الحضور بوطنية عمر الذي تحدى الأوامر الرسمية، والذي لو أعطي الفرصة لما وجدتَ يهودياً في فلسطين.

ويروي أبو توفيق، وقد كان صغير السن حين لبس خوذة عسكرية مع الجيش العراقي في جنين، أن جندياً أردنياً حدثه حديثاً عجباً، فقد صدرتْ إليهم الأوامر بأن عليهم التحرك لإنقاذ الجيش المصري المحاصر في الفالوجة، وتحركوا في الليل، وساروا إلى منتصفه، ثم اتّخذوا مواقعهم، واشتبكوا في معركة حامية طوال تلك الليلة، ولكن حين أشرقت الشمس، نظروا حولهم فإذا هم ينبطحون جنباً إلى جنب مع اليهود، فانسحبوا وهم يلعنون ويسبون.

وكثيراً ما سمعتُ ان أحد المغنين في الأعراس، غنّى شعراً عن شرتوك الذي هتك السبعة ملوك فاعتقلوه وفضوا العرس.

كان نص الرواية محاولةً من أطفالٍ في سن الكهولة أو الشيخوخة لفهمِ ما يدور حولهم، وانقاذ أنفسهم من الطوفان الكوني الذي أحاطَ بهم.. رواية يؤمن قائلها بأنه كان من الممكن ألا تكون بهذا الشكل، فقط لو لم يحتشد الكون بالخيانة، ولو صدرتْ الأوامر التي لم تصدر لأسبابٍ أشد غموضاً.

هناك إذن شيء أصلي كان يجب أن تسير بموجبه الأحداثُ، شيء تشير إليه طبيعةُ الأشياء، ولكن كلّ شيء يبدو مختّلا، فلم يظهر الوطن، ولا عادت الجماعة إلى قراها كما في القصص، ولا اصطدم رأس المضبوع بصخور المغارة، ولا انضبع الضبع وهرب وهو يحشرج في الوادي. إن خطأ ما موجود وكامن، ولكنّه مؤقت.. مؤقتٌ إلى درجة أن وضعية القروي الفلسطيني لاتُصدق حتى من قبله، ولا يؤمن بما هو عليه الآن.

وادي عارة الذي يخترق روايات أهلنا مثل علامة لابد من إقامتها لتتضح خيوطُ الرواية، كان ممرنا إلى الشرق ثم تحولَ إلى ممرٍ للذين عادوا بين الفينة والأخرى، وكلما استيقظوا، ليواجههم الرصاص، رصاص اليهود أحياناً ورصاص الدروز في أحيانٍ أخرى.

وفي التواريخ القروية، أن هذه العودة كان لابد منها ليستعيد القروي شيئاً مما تركه في بيته أو ليسأل عن بقية عائلته التي لم يجدها في جنين. وتقولُ الأحاديثُ إن الكثيرين عادوا فجأة، وفي لحظة ما، كان تكون الجماعة مجتمعة تتذاكر أيام البلاد فيهب رجلٌ ما، ويتّخذ طريقه مسلوب الإرادة إلى الغرب، وتحاول الجماعة رده، ولكنه لايصغي.

وبالطبع.. لاأحد سيسمع بأخباره فيما بعد، إلا أن بعضهم كان يعود منكسراً ليهشّم بأخباره ما تبقّى من رغبة كامنة لدى القرويين في أن بلدتهم ما زالتْ قائمة تنتظر أهلها، وليصف بمرارة تلك البلاد التي تغيرتْ: "أما بلدكم، فلا أحد فيها. وقد أقام اليهود نقاطاً عسكرية عند مدخلها"

وسيسأل بعد ذلك الناس عن أشجارٍ بعينها كانتْ تدلّ على مواقع بيوتهم. وسيؤكد العائدون وجودها. ولكن بعد أن امتدتْ وعرشتْ وتطاول الصبر وتجاوز السنسلة، ولم يعد أحد يستطيع منعه من التهام الحواكير.

لاأحد في هذه الغابة الحجرية يقوى على النمو أبعد من تلك اللحظة.. اللحظة التي توقّفَ فيها كلّ شيء عن الدوران. ورغم أن الشمس ما زالتْ تُشرق، والليلَ يلقي بظلامه إلا أن كل هذا لايبدو مفهوماً تماماً أو ذا معنى، فقد خلّفوا المعنى وراءهم. ودخلوا عالم اللامعنى.. عالم المؤقت والعابر، والإهانة التي يمكن ابتلاعها لأنها ليستْ حقيقية، والمغارة التي يمكن اللجوء إليها لأنها مجرد مبيت مؤقت.. وحين يصرخ الصغار من الجوع، تعتصر القلب قبضة من العجز حتى البكاء، وتتعلل النفس بالبيت الذي ما زالَ قائماً، بالخوابي المليئة بالقمح والطحين، والحواكير التي كانت تمدنا بكلّ شيء.

لاأحد يستطيع لمس البكاء والألم كما يلمس الشيء الحقيقي. إنه عابر أيضاً كما في الحكايات والقصص والنوادر التي يتندر بها الفلاحون، وهم مطمئنون إلى أن عالمها لايمس عالمهم، فهي بغيلانها وشياطينها وضباعها تقع في عالم آخر.

سيتحول العالم إلى قصة إذن لاحتمال ألمٍ لايخفّفُ من حدته إلا الشعور بأنه عابر، ولكن مثل هذا الأمر بحاجة إلى ذهولٍ عن ملمسِ الحجارة الغريبة، والمياه التي تجمعتْ حولها خيم القرويين، ذهولٍ عن ملمسِ العالم الذي يطلّ من بيوت أصحابِ الأرض الذين لم تبتلعهم الهوة التي أخذتْ معها قرانا وحواكيرنا، ولن يدرك هؤلاء الذين أطلّوا خلال وجوهنا على اتساع الهوة المظلمة، أنها من النوع الذي يتمدد ويتسع، وتتآكل الحوافُ التي تشبثوا بها.
ويقولون أن إنساناً ما حوله العلم وحولته المعرفة إلى شخص مجنون، ويتهم القرويون الإدمان على القراءة والانعزال، فأي جنون إذن يسكن هؤلاء الذين عرفوا رغماً عنهم أنهم انتزعوا من أرحام امهاتهم عراةً وعزلاً من كلّ شيء، وتلقتهم قوافلُ التموين وإشفاقُ أهل عانين وجنين وعرابة!

المياه وحدها لاتكفي لرواية حكاية من النوع المطلوب، ففي الماء سقطت الخرزةُ الزرقاء التي حمتْ جبينة حتى الآن من عدوان العبدة السوداء. وهكذا، وجدت نفسها خاضعة لمصير يروى، تنهض عن ماء العين بعد أن ارتوتْ، وتعود إلى حصانها، فتفاجأ بالعبدة وقد حالتْ بينها وبينه بل وتأمرها بأن تستبدل ملابسها فترتدي ملابس العبدة، فتنصاع بدون أدنى شكوى، وفي أذنيها الصوتُ المخنوق للخرزة الزرقاء في قاع العين، وتلطّخ العبدة وجه جبينة بالوحل الأسود، وتأمرها بالمسيرِ أمامها هي التي استولتْ الآن على كلّ ما كان يميز جبينة.

وتتواصل الحكاية الآن، ولا أحد يدري بما حدثَ والعبدة تنتحل شخصية جبينة.. وجبينة مجبرة على أداء دور العبدة.. في طريق طويل قد ينتهي ولا ينتهي. المياه وحدها لاتكفي لتحول الرواية إلى خيالٍ جميل تتحرك فيه جبينة عائدة إلى البلاد بعد أن تحدثتْ في غربتها مع طير السماء، وأبكت الغنم والماعز، وبلّتْ بدموعها ظلال الدالية، وأنقذتها هذه الأغنية التي كانت تغنّيها كل يوم إلى أن سمعها صاحب الغنم فعرف من هي وأهلها وفصلها.

سنغنّي إذن تلك الأغنية المستمرة التي حين يصغي إليها الناس سيعرفون من نحن ومن نكون وأي مصير ينتظرنا.. كل هذا قبل أن تنطق الحجارة أو يدلّ الشجر على اليهودي أوترتفع الدماء إلى الركب. سنغنّي هذه الأغنية، ونواصل البكاء الذي لاينسى في وادي عارة، وعلى أطراف البساتين ثم في عمق العواصف التي تهب فجأة فتقتلع الخيام المقامة على عجلٍ.. والتي تناثرتْ بين جنزور وعين شمس والفارعة، وحيثما كان الماء.. الماء الأسطوري الذي خُلقنا منه وخُلق منه كلّ شيء، ومازال يسيل بلا ذاكرة، فتمتليء بئر الهرامس، وتهتز وتربو أعشاب الروحة حين يتساقط من السماء، وينهالُ على بيوتنا الحجرية على السفح الجنوبي للكرمل.. وفي عمق الوادي الذي تطلّ منه المغُر ويزخّ حين يتحول اتجاه الرياح فيبلّل واجهاتها الصخرية، ويسيل إلى الداخل فيصل إلى التراب المائل للاحمرار، وشظايا الجرار المكسورة، ويتوغل عميقاً ليلامس عظام الأجداد.. أولئك الذين عبثت بهم دوروثي غرود ذات يوم، وإن ظلّ معظمهم غائراً في العتمة لاتجد هذه البريطانية سبيلا إلي إغرائه بالكشف عن نفسه.

سنغنّي هذه الأغنية إذن، ونحن واثقين من أن أصلنا وفصلنا لابد ان يعرفا يوماً، ويقام لنا احتفال العودة، ويزول الاختلاط الذي سببه انتحالُ العبدة لشخصية هذه الطفلة البريئة التي لم ترتكب جريمة سوى أنها كانتْ تود أن تذهب إلى عرسٍ في قرية مجاورة.

XV1

"بعدنا تنحدر الأرض، فنحن آخر المرتفعات وآخر الصيافير، وربما آخر النهارات".. هكذا يصف صديق من عانين ويحدد موقع قريته التي مر بها أهالي أم الزينات فأقاموا عند منابع المياه، وفي الكهوف والبساتين، ولكنه لايصفني بالتأكيد، ولايصف الأسماء التي أحملها، ففي تلك النهارات التي رحلتْ وراء الكرمل غرباً، وخلّفت الليلَ، والنيران المنتشرة، كنّا قد بدأنا الدخول في الحالة الحجرية، مغلّفين بهذا الغموض الأملس الذي لا يأتيه الإنسان من أي جهة إلاّ واصطدم بما يشبه اللغز. نحن ألغاز إذن.

ويتذكّر الصديقُ هؤلاء الذين جاؤا بضجيجهم وصراخ أطفاهم، واقتحموا طفولته الملساء، وغادروا بدون أن يتسربوا في شقوق البيت أو حوله. لم يكونوا قادمين من الندى بل من غبش معتم، من ارتجاجٍ مفاجيء.

ويروي أن هؤلاء الغامضين داروا في أحاديث مضافة والده، كما يدور الدخان الذي ينفثه الجالسون، وتبددوا مثله، فقد رحلوا وتوزعوا بعد ليلة عاصفة اقتلعت الخيام والشجر. ما الذي يبقى إذن؟ لقد رحلوا حاملين أبا هولهم معهم.. اعني زمنهم الحجري الذي لم يتوقف عن إلقاء الأسئلة حتى على الذين ماتوا بدون أن يعرفوا الأجوبة. حتى على الذين أصيبوا بالذهول وغادروا عالمهم منذ زمنٍ طويل ولم يعودوا بعد. حتى على الذين غابوا ولم يعرف أحد تحت أي الصيافير تبعثرت عظامهم أو في أي بلد غامض توزعوا.

إنه في العمق أبو الهول هذا، يتخذ أشكالاً لا سبيل إلى التكهن بها، فهو يوماً جندي يهرع بعربة معبأة بالخبز إلى صفوفنا المنتظرة، وهو يوماً طبيب ضجر، يمسك بأيدينا الغضة، ويغرس فيها شيئاً يشبه شوكة الطعام، أعلى الكتف، أو على الذراع، وهو رجلٌ يلاطفنا ويمر مخلفاً التفاتاته، وهو يوماً هذه الوجوه الصغيرة المتفرسة التي أحاطتْ بي وأنا أخرج من غرفة مدير المدرسة، وهو هؤلاء الرجال الذين تجمعوا حولي في دكّان بقال، يود كلٌ منهم أن يفهم ماذا أريد ولا يفهم.

كل شيء يدور، والبطّ العائم في نهر دجلة يبدو وكأنه نهاية المطاف، فهناك يستيقظ شيء في الروح على رؤية الماء والبطّ وأم وأبٍ يسيران ببطء مع طفل صغير، وأراقب المشهد لاأعرف أين حدث كلّ هذا؟ ومتى؟ ولماذا كان الماء صافياً.. والبط هادئاً.. وما عدتُ أرى هذا المشهد أبداً؟

لم أتحجر إذن، ولاسمعتُ صراخ الضبع في ذلك الدغل الذي تحدث عنه والدي، فقد عبرتُ خفيفاً، هكذا مثل غيمة، لم يجاورني جسدي، ولا عنفُ الشوك أو صلابة الصخور، ولا برد الشتاء، ولاحرارة الصيف. ولا انطبعتْ بروحي حشرجاتُ الأهل الغامضين الذين أستعيدهم. إنني الندى

نفسه. الندى في التماعه الآن، وتكاثفه مع أواخر الفجر، وعلى الأكمات والصخور والأودية وأبوابِ المغارات، وتلويه في عتمة الخضرة، وتساقطه بدداً على الترابِ مغادراً أمه السريسة أو البطمة أو الزيتونة أو الهواء. إنني الندى، ولا أهلَ لي.

هكذا أستطيع أن أفقد الحنين لشيء محدد، وأراقب النشيج الذي تبعثه حلقةُ النسوة الدائرات حول القبر وظلالهن السوداء تتقاطع، وأحتفظ بالمشهد، لأضفي عليه فيما بعد تأويلاتي كما أشاء. هكذا أستطيع أن أسخر من الحاج القطروز وهو يتحدث بوقارٍ عن أيامه، وأيامِ تجنيده في الجيش التركي، وأتخيله بلحيته وانحناءة ظهره وأنفه المحدب وقد أثقلته الحقيبة على ظهره، والبندقية العثمانية الطويلة.
هكذا وبهذه الحرية البالغة أستطيع أن أصف الشيخ حمزة بالأبله. أما خليل فهو نصف أمي. وأراقب خالي وهو يتحول إلى شبحٍ غير واقعي هو وبندقيته وصديقه الانكليزي كشيء لم يكن، ولم يحدث.
ولكنني أتوقف أمام أمي وحسرتها الدائمة، هي التي تعرفني على الطرق التي جئتُ منها، والمنافذ التي تسربتُ خلالها وأنا في حالة الندى، وأنتظر أن تقول شيئاً لأجادلها، وأفسر ماغمض من كلامها، وأجيب على أسئلتها، تلك التي أنتظر أن تطلقني مرة أخرى إلى الوعر والسهوبِ، والمغاور، والليالي التي لاتبيد ولا تشرقُ الشمس بعدها، وأن أشرقتْ فلكي أعود إلى حالتي الحجرية.. إلى السكون الأملس الذي لايخدشه شيء، ولاينطبع عليه شيء.

أمي هي التي وضعتني في حالة الندى، وسواء كانت تعرف أم لا فإن ذبذبات صوتها والأسماء الغريبة التي تكررها وكأنها تحدث نفسها، تضعني خارج الأشياء. وحين كانت تتجاهل أسئلتي كانت تمنعني من دخول الغرفة المحرمة، تلك التي ترتيبها السابع والسبعين في وقت تأخذني فيه إلى كلّ الغرف، وكأنما توصيني دائماً بأن أتوقّف، ولا أغامر بدخول الغرفة الأخيرة.
ولكن الحسن البصري في الرواية يقتحم أخيراً هذه الغرفة ولا تحميه بعد ذلك عناية أخواته من حالة البكاء الدائم. لقد كفّ عن حالة الندى، وسلبته الطيور/النساء أو النساء/الطيور طمأنينة العيش، وقطعتْ عليه طريقَ العودة إلى الغابة الحجرية.

هنالك شيء يستيقظ في الروح، وتهب الصبيةُ من أعماق البحيرة باحثةً عن ثوب الريش الذي أحتفظُ به..ولا أستطيع. إن العري الكامل لهذا الوجود ثقيلٌ على من كانتْ طفولته الندى، ثقيلٌ إلى درجة أنه لا يستطيع التحديق فيه إلى اللحظة التي يتلاشى فيها.

وهكذا أتخلّى عن الثوبِ والرواية كلّها، وأُغلق باب الغرفة المحرمة كأن شيئاً لم يحدث. هكذا لم يمسكني أحد متلبساً بحالة الطفولة أو حالة الندى أو الحالة التي ينطبع فيها كل شيء في أعماق الروح ولا يزول.

سيمثّل الآخرون الأدوار التي أحببتُ وسيصفون مشهدي والمشاهد التالية، فأنا الذي اقتحم الوعر بخيوله وانتشر متخلصاً من تطويق الانكليز، وانا الذي أصابتني البلاهةُ فجأة في الطريق إلى الدالية، صامتاً، بدائياً لاأعرف ما هذا النواح والضجيج الذي امتد وامتد، وأنا الذي لا يعرفون أين ذهب بعد تلك الليلة، وفي أي الطرقات صادفه الضبع او الرصاصة أو السكون.

لاأتخيل نفسي راكضاً، أو هلعاً، بل خفيفاً كما الندى، ولستُ بالطبع ذاك الصغير بين الصغار الذي تركته أمه وتركه أبوه وهما يعودان إلى البيت في الليلة التي رفّ فيها الحمام وأحدثَ انقلاباً في دورة الفصول، ولا ذاك الذي كان بين المئات الذين انتشروا حول عانين فكانوا حديث الموسم لأهلها، وتبددوا مثل غيومٍ ترحل إلى الشرق، وتتوزع بعيداً عن ذاكرة أطفالها.
سيتوقف الزمن ويؤجلُ كلّ شيء من دورة الفصول إلى الصباحات والليالي، إلى رغبات الصغار الذين كانوا يشبهون الندى في عيون أهاليهم، ويؤجلُ كل شيء، بعد أن هبط الفلاحون آخر المرتفعات واستقبلتهم البساتين والعيون والطرقُ وحالةٌ لا هي بالزمان ولا هي بالمكان.
لاأتخيل نفسي غائباً او حاضراً بل موجوداً، ولكن التفاصيلَ هي التي تصاب بالضبابِ، فيختلط الناس بالمكان، ويختلط الزمان برائحة الماء، ونهدات العشب الأخضر، وتراب الكهوف الأحمر، وطعم الخروبِ. ويكون لهذه المملكة العجيبة الغارقة أن تظهر، وإلا فإن الحزن سيظلّ رفيقنا الدائم، فحين غادر ذاك الصياد اعماقَ البحرِ، ورجع إلى اليابسة، اكتشف أن مئات السنين قد مرتْ منذ أن سقط في البحرِ وتسلّمته الحورياتُ، فأي حياة يمكن أن يبدأها الآن؟ إن ما يملكه هو أن يعود ولكن إلى أين والبحر أغلقَ أبوابه؟ إننا نعود في القصص بعد سنة أو سنتين أو أكثر، ولكن الوقوع في أسر الحوريات يحول نص الرواية حيث لا زمن ولا مكان.

كل شيء يبدو خارج العالم.. خارج السفوح والصيافير وحتى الضباع والمطر الثقيل الذي لايكاد يتوقف، كأننا تحولنا فعلا إلى أشجارٍ حجرية لا تنمو، وتحققتْ حياةُ الجندي التركي المنذرة في حياة كلّ منا.. ولا يربطنا إلى السرير، ويمنعنا من الاندفاع ليلا، إلا هذا الحديث الذي يرمم ثغرات وجودنا، ويجعلنا نصدق أننا لم نُصب بالجنون.. أعني لم نتلق ما يكفي من العالم ليجعلنا أشجاراً أو أحجاراً..حديث يدور ويتواصل مع كلّ قادم جديد، يضيف قطعةً إلى نسيج الحياة الذي تهلهلَ حتى ليصعب أن نصنع منه فراشاً أو كفناً، فكلا الأمرين: الموتُ والحياةُ يحتاجان إلى شيء حقيقي يتمسك به الإنسان، وما كان هناك شيء حقيقي بعد وادي عارة غير ذكرى البكاء.. ومشاهد الجبل الذي يتوقف عن التغلغل، ويتركنا وحيدين باتجاه الشرق.. الشرق الغامض. إنه لايمضي معنا بالطبع، ولم يمض منذ آلاف السنوات.. ومع ذلك فلا شيء أشد حنواً من صيافيره وأوديته وصمته الليلي.. لاأشد حنوا من الحقيقي مقابل الوهمي الذي سقطنا فيه.

إن الصياد لايجد باب البحرِ مغلقاً فقط، بل إنه ليهرم فجأة. وبمجرد أن يخرج من الماء ويستيقظ سيختلط الأمر: الحقيقي الذي تفصله عنه مئات السنوات.. والوهمي الذي تفصله عنه إغفاءة، وهذه اللحظة التي لا هي بالحقيقة ولا بالوهم.

لم يعد خالي إلى الدالية إذاً، ولا غادرناها إلى عانين وجنين.. بل سقطنا في هذه اللحظة، ولذا لم تستغرب أمي من لرؤيتها لصديقنا الجندي التركي بين جموع الناس المنتشرة بين الكهوف والخيام، ولا لفتَ نظرها أن الشيخ حمزة لم يكن له وجود، ولا أن الوالد يحثها ليسجل اسمه مع الراحلين إلى العراق. كلّ شيء لايبدو حقيقياً، سوى هؤلاء الأطفال الذين يلهون أحياناً، ويصمتون في أحيان كثيرة.. ولا يسألون. أطفالٌ تود أن تطعمهم وتقودهم خارج هذا الوهم الذي يلفّ بضبابه الناس والبساتين والطرق، فبعدنا تنحدر الأرض، وينحني الزمن، في يوم مقداره ألفٌ مما يعدون.